

الباب الثالث

الآراء الفلسفية عند الأمير شكيب أرسلان

الفصل الأول

نقد الأمير شكيب أرسلان للفكر المادي الحديث

- تمهيد

- قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان

ونظرية التطور

- عمر الإنسان

- مذهب النشوء والارتقاء

- مذهب النشوء والارتقاء في الغرب

- مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي

- رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تمهيد :

في أواخر القرن الثامن عشر ، وفي أثناء القرن التاسع عشر بأسره ظهرت بعض النظريات ، أو الفروض العلمية العامة ، التي حاول أصحابها أن يفسروا بها نشأة الحياة على سطح الأرض . وكانت هذه الفروض في حقيقة الأمر امتداداً لبحوث قام بها علم جديد هو علم طبقات الأرض ، فإن بحوث هذا العلم أثبتت أن المادة غير العضوية التي تتكون منها القشرة الأرضية مرت بأطوار عديدة ، وعصور جيولوجية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، كما تدل على ذلك الحفريات التي تكشف لنا عن تكون طبقات أرضية متتالية بعضها فوق بعض في آماذ سحيقة .^(١)

ولقد راجت فكرة (التطور) في هذا العصر رواجاً كبيراً ، حتى أصبح يطلق عليه عصر التطور^(٢) ، ففي علم الأحياء أراد الباحثون أن يطبقوا فكرة التطور هذه على الكائنات العضوية كالنبات والحيوان ، وحاولوا اثبات أن ظهور الحياة يعتبر امتداداً لتطور المواد غير العضوية في ظروف ملائمة ، لكنهم اختلفوا في السبب المباشر للحياة^(٣) ، وفي علم الأديان راجت نظرية التطور الأديان ، وفي عالم الفكر راجت نظرية تطور المبادئ والنظم ، وسرت هذه الفكرة إلى كل ناحية ، فالعائلة والأخلاق والدولة تطورت ، وكل شيء في هذا الكون تطور ، وأصبح التطور يطلق على معاني التقدم والإرتقاء ، وصار من وراء ذلك خلط عجيب لا يكاد ينجو منه إنسان .^(٤)

والحق أن أي بحث متعلق بتصور (الإنسان) وخصائصه الفريدة لا يمكن أن ينفصل عن الدين ، فنحن - المسلمون - نؤمن «أن المصدر الوحيد الذي يمدنا بحقائق مؤكده عن خلق الإنسان ومكانته وغايته هو القرآن الكريم ، ولذا عنى مفكروا الإسلام

١ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وعصره ، ص ١٧٥ .

٢ - قيس القرطاس ، نظرية دارون بين مزيجها ومعارضها ، ص ١١ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني (مرجع سابق) .

٤ - قيس القرطاس ، نظرية دارون (مرجع سابق) .

باستمداد نظراتهم من القرآن مباشرة» (١)

- «مثال ذلك ما كتبه ابن تيمية في تفسير لبعض الآيات القرآنية في هذا المجال مثال قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ، وقوله عز وجل : «الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين» فأصل الإنسان التراب وفصله الماء وهنا تظهر القدرة الإلهية التي تبهر العقول وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيلها من شيء إلى آخر ، فإذا خلق الله الإنسان من المني ، فالمني استحالة وصار علقة والعلقة استحالة وصارت مضغة والمضغة استحالة إلى عظام وغير عظام .

فالإنسان مخلوق خلقه الله - جواهره وأعراضه - كلها من المني أي من مادة استحالت فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يزعم الفلاسفة .

ويقدم لنا الأصفهاني نظرة أخرى فيذكر أن الإنسان مركب من بدن محسوس وروح معقول مستنداً إلى قوله تعالى : «إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» فالروح هي النفس ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفاً لها» (٢)

«أما كمال الإنسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سبحانه وتعالى لأن من لم يكن عبداً لله فلا بد أن يصبح عبداً لغيره» (٣)

«وهكذا فإن «الإرتقاء» في جوهره أخلاقي بحيث يصل الإنسان حينئذ إلى مستوى أفضل من (الملائكة) فلا يظهر الإنسان في ابتداء أحواله وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله وليس أدل على ذلك من ثبات أحوال (الملك) الذي يتشابه أول أمره وآخره ، فالقاعدة الأساسية إذن إذا تكلمنا عن الرقي الإنساني وتقدمه الحضاري يكمن في

١ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ١٩١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، (المرجع السابق نفسه) ص ١٩١-١٩٥ .

٣ - المرجع السابق .

رقبه الأخلاقي وسبيله إلى ذلك الحرية بالمفهوم الإسلامي ، وهي تعني تحرير الإرادة الإنسانية من سلطان الهوى والشهوات والسمو بالغرائز وتهذيبها خضوعاً لأوامر الله عز وجل» (١)

وهكذا يضع (القرآن الكريم) الإنسان في موضعه الصحيح ، ويمده من تعاليمه وأحكامه وحدوده وهده بما يكفل له خير الحاضر والمستقبل ، وبما لا تستطيع عقيدة أخرى إمداده به .

«ولن يستطيع ناصح أن ينصح أهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح ولا أصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم الكريم» (٢)

ولكن النظريات المادية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا عن إرتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات «لم يزل يختار بمرحلة بعد مرحلة في رحلته النوعية التي استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر ، من (أميبا) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعي ، وزعيم هذه النظرية وبطلها (دارون) الذي ظهر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م فكان حديث النوادي والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل» (٣) كانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق في المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيسار الفكر وتصرف نظر الإنسان في الاستعلام والاستهداء في مسائله وفي تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارهما العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله ، فلا غرابة إذاً إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب ، وخافوا على مصير الدين في أوروبا . (٤)

١ - المرجع السابق .

٢ - عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن ، ص ١٨٦ وما بعدها .

٣/٤ - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

وقد تصدى للرد على (مذهب التطور) هذا في الشرق الإسلامي عامة ، والشرق العربي خاصة نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وقد هالهم إقبال الجمهور والدهماء على هذه النظرية في أوروبا - رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - فهموها أو لم يفهموها - وكأن الأذهان كانت مهينة لمثل هذه النظرية .^(١)

والشرق في ظل التخلف المادي والتفوق الحضاري الغربي أصبح يعيش حالة من فقدان الثقة بالنفس والإضطراب جعلته مفتوناً بتقليد الغرب وتلقي كل ما يصدر عنه من أفكار ونظريات ومفاهيم في شتى مجالات السياسة والإجتماع والعلم والترفيه وكأنها حقائق علمية لا مجال لمناقشتها .

لذلك كان إسهام رواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وأصحاب الإجتهد من أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية في بلاد العالم العربي ضرورة ملحة ، وقد وصلت أصداء الردود التي كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الإسلامية في الهند والصين .

ومن أشهر من تصدوا للمذهب المادي في العصر الحديث السيد/جمال الدين الأفغاني في كتاب (الرد على الدهريين) ، والشيخ/محمد رضا آل العلامة التقي الأصفهاني . وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكربلاء المعلي ، تحري النظر في مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء والإرتقاء العربية والأفريقية التي وصلت إلى الشرق الإسلامي ثم رد عليها في كتابه (نقد فلسفة دارون) ، والأستاذ/إبراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - وقد ألف في الرد على مذهب دارون رسالة «مناهج الحكماء في نفي داروين» وطبعها بيروت (سنة ١٨٨٦م) رداً على مناقشة «الدكتور شبلي شميل» لرسائلته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره إلى الدليل القاطع وتعويله على الشراهد التي توحى

بالرأي ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه
الاحتمال. (١)

ولقد كان الأمير (شكيب أرسلان) واحداً من مفكري الإسلام الذين شعروا بخطر
تأثير هذه النظرية العميق على الأفكار والعقائد والحضارة والأدب والسياسة وفي أخلاق
الناس .

لذلك حذر شكيب أرسلان العالم الإسلامي من الإستغراق في الفكر المادي الوافد
من أوروبا ، ونسيان ما سوى القيم المادية ، وبين أن نتائج هذه المادية الجارفة ،
والترية اللادينية التي ليست فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عزوجل ستؤدي إلى
عبادة المادة ، والإنقياد لشهوات البدن ، وضياح المثل العليا التي لا تتكون في
الأذهان ، ولا تصير هدفاً للقرائع ومرمى للعزائم إلا عند المؤمنين بدين الله تبارك
وتعالى.

كما قرر الأمير شكيب أن مذهب التطور أياً كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ،
ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو
الكون من دلائل القصد والتدبير .

وإذا كان لانتشار هذه النظريات المادية في أوروبا أسباب حتمية دينية وطبيعية
وتاريخية ، جعلت علماء الطبيعة والعلوم يحطمون سلاسل التقليد ويبطلوا نظريات
التوراة من جهة تكوين الأرض وبدأ الخلق ، كما بينوا زيف النظريات الجغرافية التي
اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة ، ومنها ما يرجع إلى رجال
الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فليس في الإسلام ما يدعو إلى نبذ
الدين ، ولا يوجد في القرآن شيء يخالف قواعد العلم ، بل إن في الرجوع إلى الإسلام
والأخذ بما جاء في القرآن يزيد إيمان المسلم من شدة مطابقة آياته البينات للتحقيقات
الحديثة ، ويحار فيها غير المؤمن بالوحي ، يقول شكيب أرسلان :

«إن القرآن الكريم ليس بكتاب جغرافيا ولا قوسموغرافية ، بل كتاب توحيد تنزيه ، وتهذيب نفوس ، وتطهير أخلاق ، ومع هذا فلم يرد فيه شيء يخالف قواعد العلم بل وجدت فيه آيات بينات يحار غير المؤمن بالوحي من شدة مطابقتها للتحقيقات الحديثة سواء في علم الفلك ، أو في علم تكوين الأرض مما كان في عهد نزول القرآن مجهولاً»^(١)

ويستشهد الأمير شكيب بآيات من القرآن الكريم تنطبق على النظريات العلمية الحديثة التي ثبتت صحتها كحقائق علمية ، وذلك مثل آية :

«أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي» (*)^(٢) ويدعو الأمير شكيب إلى تأمل مافي هذه الآية من الإنطباق على جميع النظريات العلمية الحديثة التي معناها أن الأرض والأجرام الفلكية كلها كانت كتلة واحدة فانفصل بعضها عن بعض ، وكذلك أن الحياة بدأت في المياه .^(٣)

وقول الله تعالى : «وكل في فلك يسبحون» (*)^(٤) التي تثبت أنه لا يوجد في الفلك جرم غير متحرك على الإطلاق مع أن الفلكيين في عصر القرآن كانوا يقولون بالسيارات والثوابت ، حتى التجأوا يومئذ عند تفسير هذه الآية إلى التأويلات والإحتمالات البعيدة ، إلى أن تقرر في علم الهيئة الجديد كون الأجرام الفلكية بأجمعها متحركة ، وصدقت الآية بدون أدنى تأويل .^(٥)

وقوله تعالى : «من كل زوج بهيج» (*)^(٦) وكيف كرر ذلك مراراً حتى يفهم

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ مج ١ ص ٣٤٥ .

٢/٥ - المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٦ .

(*) ٢ - سورة الأنبياء ، آية : ٣٠ .

٤ - سورة يس ، آية : ٤٠ .

(*) ٦ - سورة الحج ، آية (٥) - سورة (ق) ، آية (٧) .

الإنسان أن الخلق كله من حيوان ونبات وجماد ، مبنى على الإزدواج حتى النبات فيه ذلك ، والجماد فيه القوتان السلبية والإيجابية مما لم يكن شيء منه معلوماً في زمن البعثة ، فلم يفهم العلماء بعد مرماه إلى أن تكلفت به التحقيقات العصرية» (١)

« يذكر الأمير شكيب هذه الآيات البينات وغيرها من الآيات التي تدهش القارئ المتعلم بما فيها من الحقائق العلمية (بشرط أن يكون ذا ملكة عربية ، يقدر بها أن يتدبر عمق غور تلك الآيات لا أن يكون أجنبياً عن أدب العربية) (٢)

وبهذا الفهم القائم على الإيمان بقدرة القرآن الكريم على المواجهة والتحدى أمام التفكير المادي الذي يلح على أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء ، وببالغ في تمجيدها وتقديسها الإحتفاء بها والحرص على ترفيها وتزيينها ينطلق الأمير شكيب أرسلان في تصويره للوجود والإنسان ، وفي نقده للمذهب المادي الحديث المتمثل في (نظرية التطور) في شكلها العلمي والفلسفي وفي تطبيقاتها المعاصرة من خلال الفكر الشيوعي الذي أسس فلسفته (كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣م) ليتم حلقة التطور ، (ويثبت بنظريته التطورية لتفسير التاريخ ، أن تاريخ الإنسان ، هو تاريخ البحث عن الطعام ، فتاريخه لا يعدو في قيمته الحقيقية ، أن يكون تاريخ أي حيوان يقتات على الأعشاب أو يفترس غيره من الحيوانات) (٣)

وهكذا جحد (ماركس) جميع نواحي البشرية غير الناحية الإقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقدّر للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم تكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً في سبيل تنظيم جديد للنظام الإقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي . (٤)

٢/١ - المرجع السابق نفسه ، ص ٣٤٦ .

٣ - قيس القرطاس ، نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيه (مرجع سابق) ص ١٧٣ .

٤ - أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم . (مرجع سابق) ص ٢٠٧ .

وشكيب أرسلان يرى أن الإسلام ليس بحاجة إلى (الشيوعية) لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، والشرائع السماوية أقرب إلى المساواة ، وأرفق بالضعف ، وأحذب على الفقر من القوانين البشرية .^(١)

كما يرى شكيب أرسلان أن الإسلام وحده هو القادر على صد المادية الجارفة ، «ففي الإسلام ، الطاقة الإيمانية عقلية في أكثر أحوالها ، تعتمد على الرشد والنقد والمحكمة ، وقد أمدها هذا العصر العلمي الأخير بمدد لا يفنى من الحجج والبراهين ، وهكذا يصبح من السهل استعادة استقلالنا في مجال الأفكار»^(٢)

ولن يتحقق هذا الاستقلال إلا بإيجاد صورة من التماسك السياسي للدول الإسلامية ، وإعادة النظر في أساليب التربية ومناهج دراسة الثقافة الأوروبية ، وبعث (مدنية اسلامية) تنقذ أجيالنا من تشرب روح المدنية الغربية .

١ - شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٤ ص ٥٣٥ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢٠٣ .

obeikandi.com

قضايا الإنسان في فكر الأمير شكيب أرسلان ونظرية التطور

عمر الإنسان

إن تقدير الزمن الذي مضى على ابتداء حياة الإنسان على وجه الأرض مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ومن أكبر الديانات التي عرضت لتاريخ الخليقة الديانة اليهودية التي قدرت عمر البشرية بخمسة آلاف أو سبعة آلاف سنة [١] ، وظل هذا الاعتقاد شائعاً حتى نهاية القرن السابع والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب من مباحث الدين أو العلم ، شيء يدعوهم إلى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرناً بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمة البصر الخاطفة [٢] بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية . وقد أوقعت هذه الكشوف علماء أوروبا في مشاكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراه ، وقد انقسموا في البحث عن حل لهذا المشكل إلى ثلاث فئات بين كلاً منهم الأمير شكيب فقال : إن الفئة الأولى حلت هذا المشكل برفض التوراه بتاتا وهؤلاء هم الفئة التي لا تقول بالأديان ، والفئة المسماه بالإلهيين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبوءات . والفئة الثانية بقيت متمسكة بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراه دخلها تحريف كثير وأن فيها كثيراً مما أدخله اليهود .

وهناك الفئة الثالثة التي لا تقبل التلاويل والتخريج في التوراه ولا ترضى بأن يقال أن فيها من أوضاع اليهود - وبالتالي فليس من التنزيل - كما أنها لا ترضى أن يقال بأن الكتب المنزلة إنما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنة وادخال الشك على العقائد ، فهذه الفئة الثالثة هي الفئة المتدينة الباقية إلى اليوم على العقائد التي كانت عليها النصرانية في القرون الوسطى وهي التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية ، أو الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية [٣] .

[١] المصادر اليهودية ، على حسب تحقيق الفقيه (جيمس يوشر) المتوفى سنة ١٩٥٦ م تدل على ابتداء الخليقة في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م ، وقد شرح أسانيدته التي بنى عليها هذا التقدير في كتاب ضخيم سماه السجلات القديمة ، والعهد الجديد ... (عباس العقاد - الإنسان في القرآن ص ٧٠) .

[٢] عباس العقاد - الإنسان في القرآن ص ٧ . [٣] شكيب أرسلان/ابن خلدون/ ملحق الجزء الأول ص ٣٠

وفي العصر الحديث ظهرت فئة من المفكرين الغربيين المنصفين نذكر منهم مفكرين فرنسيين كبيرين هما الدكتور (روجيه جارودي) والدكتور (موريس بوكاي) اللذين أنهى بهما تفكيرهما الى اعتناق الاسلام والتبشير به فيما يقدمانه من بحوث ومحاضرات [١] .

وقد خلص (موريس بوكاي) الطبيب الفرنسي الباحث في دراسته القيمة (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم) الى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحا مع العلم الحديث ويحصرها في ثلاث نقاط جوهرية :

(١) خلق العالم ومراحله .

(٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض .

(٣) رواية الطوفان [٢] .

وأهم ما يعنينا في هذه النقاط الثلاث هو تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض فيقول (موريس بوكاي) : إن التقدير العبري الوارد بالعهد القديم يحدد تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد ، وهو مخالف تماما لما نعرفه بواسطة العلم الحديث إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون ، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكون النظام الشمسي تقريبا بأربع مليارات ونصف من السنوات [٣] .

كذلك أخطأت التوراة في سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التي تفصل بين ابراهيم وآدم عليهما السلام - فادت الى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرنا . وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد ، وتتعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير [٤] .

ويقرر (موريس بوكاي) بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الانسان ، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الانسانية مفكرة وعاملة وحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين .

وعلى أي حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الانسان أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر [٥] .

[١] د. التهامي نقرة ، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ، ج ١ ص ٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] د. مصطفى حلمي ، الاسلام والاديان ، ص ١٥١ إلى ١٥٤

هذا فى موقف علماء الغرب مما جاء فى اليهودية والنصرانية من تحديد لعمر البشرية، أما عن موقف القرآن الكريم مما جاء عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية فإن الأمير شكيب أرسلان يقرر أن القرآن الكريم لم يوجب على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الإنسان فلا تناقض بين الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر كما هو منصوص عليه فى القرآن وبين تقدير تاريخ الإنسان على الأرض بألف السنين بدلا من العشرات أو الاحاد . يقول شكيب " إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدة التى ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس فى القرآن الكريم شىء يدل عليها ، بل هناك الآية الكريمة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) " [١] .

ومع كثرة الدلائل التى وصلت إلى كشفها الجيولوجيا الحديثة تحت طبقات الأرض وفى أجوافها من العظام البشرية والمصنوعات اليدوية من صنع الإنسان القديم إلا أن العلماء لا يزالون يقررون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال ، فليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألف من السنين ، ولكن المحقق أن يغالها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب .

يقول الأمير شكيب : " إن الذين جزموا بقدوم عهد الإنسان بناء على ما كشفوه فى باطن الأرض ، وما نقبوا عنه فى الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضا واتفاقا فى قيعان البحيرات ، لا يزالون يقرون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال وأنه لا يصح الجزم إلا بالنظرية الاجمالية التى معناها كون الإنسان وجد ، لا من خمسة آلاف سنة ولا من سبعة آلاف سنة ، بل من أضعاف هذا العدد من السنين " [٢] .

والمحقق كذلك أن الإنسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا من حيوان منها ، " وأنهم استدلوا على ذلك بوجود حجارة مضقولة على شكل الفؤوس كانوا يجهلون فى أول الامر حقيقتها وكانت العامة تعتقد بأنها حجارة تتكون من السحاب " [٣] .

[١] المرجع السابق ص ٣٢ و الآية رقم (٥١) من سورة (الكهف)

[٢] شكيب أرسلان / ابن خلدون / ملحق الجزء الأول ص ٣٢

[٣] المرجع السابق ص ٣٢

" ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدي البشر رفضوا كلامهم ومنذ مائتي سنة تواترت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة فى أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت الماء ، ومنها ما بسقت من فوقه الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة ما يستلزم وجود هذه الطبقات المتركمة فوق تلك الأدوات التى صنعها البشر الأولون من الزمن الطويل والدهور والدهارير فحكموا بأنه لا بد لذلك من عشرات ألوف من السنين " [١] . فالإنسان منذ أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان أنسانيتان لاتنفصلان عن استخدام الآلة ولأعن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان ان يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . ويؤيد هذا أن الاستدلال على وجود الإنسان فى الأعصر المختلفة لم يقع بالرغم البشرية فحسب " بل وجدت له آثار أخرى وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل المؤثر " [٢] هذا هو رأى الأمير شكيب عن ابتداء حياة النوع الانسانى وهو مرتبط بإيمانه بأصل الإنسان كما جاء بالكتاب ، أما الانسان المتمدن فإن الأمير شكيب يدعو إلى عدم إهمال الأخبار القديمة التى يرووها الأقدمون عن ماضيهم البعيد فى حياة الثقافة والحضارة الرفيعة فهى جزء من تاريخ الإنسان وليس لنا أن ننقضها بغير دليل ، ولا ينبغي أن نحملها محمل الاساطير والأقاصيص الوهمية ، " فإنه مهما كان التواتر قد بداخله اقوال عامية ، وآراء ساذجة ، فإنه يرجع إلى نضاب صدق فى الاصل لاشبهة فيه فى مجموعه " [٣] . ويستشهد الأمير بقضية تاريخ جزيرة العرب [٤] ، فان تاريخ العرب الأولين لم يبدأ

[١] شكيب ارسلان / ابن خلدون / ج ١ ص ٣٢

[٢] المرجع السابق ج ١ ص ٣٣

[٣] المرجع السابق ج ١ ص ٨٥

[٤] القضية الاصيلية ، ارتقاء مدينة العرب الى درجة عليا فى اعصر متوغة فى القدم .. وهذا يثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة فى التوراة : وتوضيح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذه الرواية وقع فى القرن ال ٢١ أو ال ٢٢ ق.م ، أى فى العصر الذى كانت ظهرت قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية ، وهو ما تؤكد المعارف التاريخية الحديثة ، وعلى ذلك يتضح أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات ، وبالتالي لم تكن البشرية كلها كما تقول التوراة . و فى ضوء ذلك كله - كما يرى موريس بوكاي - فإن النصوص التوراتية التى وصلت إلينا لاتعبر عن الحقيقة ، فلاد من وجود تحريف بواسطة البشر... (موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) عن (الإسلام و الأديان) مرجع سابق ص ١٥٥-١٥٦ .

فى الحقيقة إلا منذ بدأ السياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانيها ، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين ، ومنها ما اختلفوا عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك فى صحة المجموع وإن وقع اختلاف فى التفاصيل [١] .

فالأمير شكيب يرفض منهج المحدثين فى تعاملهم مع كل رواية تختلف من العصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة على أنها فى عداد الأساطير ، ويرى أن الكشف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير يجب أن تكون عبرة ودرسا للباحثين " لأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم يقدّم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات " [٢] .

فالأمير لا يستبعد قيام حضارات انسانية فى أزمنة موعلة فى القدم كما جاء فى الأخبار القديمة وإن لم تتكشف بعد الآثار التى تحدد متى ظهر هذا الإنسان المتمدّن - انسان الحضارة - [٣] على نحو دقيق ، إلا أن مسألة وجود الإنسان المتحضر قبل حضور التاريخ مرتبطة بالبحث عن أصل الإنسان ومكانه من الذين ، ويتجلى من خلالها موقف الأمير من مذهب النشوء والارتقاء أو التطور .

مذهب النشوء والارتقاء

تعرض الأمير شكيب أرسلان لمذهب النشوء والارتقاء فى تعليقاته على ابن خلدون ، وحث الناشئة من الأمة الإسلامية على أن يطالعوا هذا المذهب وغيره مما جدد من النظريات المحدثه ، ويقارنوها بالنظريات القديمة ليظلوا على وعى بكل فكر جديد فى المجتمع الإنسانى [٤] . فالأمير يرى أن من أهم العلوم وألذها مطالعة الوقوف على كيفية نشوء مبادئ الحضارة الإنسانية ووضع أصولها ، ولكن ليس معنى هذا أنه مقتنع بكل ما جاء فى

[١] شكيب أرسلان / تعليقات على ابن خلدون ، ص ٨٥

[٢] عباس محمود العقاد / الانسان فى القرآن ص ٧٦

[٣] " انسان الحضارة ذلك الانسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان . " المرجع السابق ص ٧٤

[٤] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٢

نظرية التطور ، بل دفعه حرصه على الا يفوت الناشئة شئ مما يجب معرفته على أهل هذا الزمان ، ولو من قبيل العلم بالشئ ولا الجهل به ، إلى اضافة تلك الأفكار الجديدة والنظريات التى لم تكن معروفة فى أيام ابن خلدون ، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الإسلامية ، والنصرانية ، واليهودية إلى تاريخ ابن خلدون حتى يظل صالحا لكل الأعصر [١] .

والملاحظ أن الأمير يتناول جانبا واحدا من جوانب نظرية التطور ، فيتعرض لمن يقصرون التطور على الأحياء أو الجانب المتعلق بعالم الكائنات الحية العضوية التى تشتمل على النباتات والحيوان والإنسان ، ولا نحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ، ولا يتعرض الأمير لمن يعمم تطبيق النظرية على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة .. وهؤلاء "القائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الإيمان بالخالق ، فى كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ... ولا بد للقتال بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البداية والنهاية ... وهى لاتنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتها" [٢]

. "أما الذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون فى تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة ، وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضرهم القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية بأثبات أو انكار" [٣] .

ومن أشهر علماء هذا المذهب العالم الإنجليزي ، شارل دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) الذى يشير الى الحد الفاصل بين البشرية والحيوانية أو مدى سريان التطور على الجنس البشرى فيقول إنه "يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الإنسان ولاشأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين" [٤] .

وبناء على هذا فإن الأمير شكيب يقرر فى بداية حديثه عن أصل وجود الإنسان على وجه الأرض ، "إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدة التى ضربها أصحاب التوراة لوجود الإنسان فليس فى القرآن الكريم شئ يدل عليها

[١] تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٣٢

[٢] ، [٣] عباس محمود العقاد ، الانسان فى القرآن ص ٨٠

[٤] المرجع السابق ص ٨٩

بل هناك هذه الآية الكريمة ((ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم)) [١] فلاتعارض بين اعتقاد علماء أوربة بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الإنسان، فضلا عن وجود المادة الأرضية نفسها وبين البداية التي يقرها القرآن بآدم وحواء. ثم لا يذكر عدد السنين التي مرت على الإنسان، وهي النظرية الاجمالية التي يصح الحزم بها والتي معناها كون الإنسان وجد، لا من خمسة آلاف سنة، ولا من سبعة آلاف سنة، بل من أضعاف هذا العدد من السنين بينما تبقى نظريات النشويين الذين جزموا بقدوم عهد الإنسان وتطوره بناء على ما كشفوه في باطن الأرض، وما نقبوا عنه في الكهوف والغيران، وما عثروا عليه عرضا واتفاقا في قيعان البحيرات، يقول شكيب إن معلوماتهم مفتقرة إلى الإكمال [٢]

. ثم يستطرد الأمير في عرض الأدوار التي قسمها علماء الغرب للمدة التي قضاها الإنسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفا عند أعقابه فيقول إن اقرب الأدوار التي يزعم علماء أوربا الذين لا يتقيدون بالكتب الدينية أنهم وجدوا عظاما بشرية تدل على إمكانية

[١] تعليقات الأمير على ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٣٢ - آية : ٥١ سورة الكهف

ولهذه المطابقة بين دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية في القرآن الكريم وبين المعارف العلمية الحديثة، أقدم الدكتور (موريس بوكاي) على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصارى وبين القرآن الكريم، وخلص منها إلى التأكيد بأن القرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل -عليه السلام- وقد كتبت فور نزوله ويحفظه ويستظهره المسلمون عند الصلاة، وأنه لا يحتوى على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث. (د. مصطفى حلمي، الإسلام والأديان (مرجع سابق) ص ١٤٨).

ولقد قدم (بوكاي) نتيجة بحثه التي تشرف أهل العلم فقال : >> كان هدفي الأول هو قراءة القرآن، ودراسة نصه آية آية مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية و انتبهت بشكل خاص الى دقة بعض الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية، ومطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن هذه الظواهر نفسها، والتي لم يكن لأى إنسان في عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون عنها ادنى فكرة، ثم قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية في القرآن، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية فادحة، فإننا لا نجد في القرآن أى خطأ...<<.

وينتهى بوكاي إلى تقرير تلك الحقيقة : >> ... ليس هناك أى مجال للشك : فنص القرآن الكريم الذي نملك اليوم، هو النص الاول نفسه و من ذا الذى كان فى عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية ؟ حقا إن فى إشارات القرآن قضايا ذات صبغة علمية تثير الدهشة <<.

(موريس بوكاي، القرآن والتوراة والعلم، ١٤٤-١٤٨) ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٢، ٣٣

تواجد الإنسان فى هذا الدور ، هو الدور الرباعى ويقال له الجليدى "ولم يقع الاستدلال على وجود الإنسان فى تلك الأعصر بالرمم البشرية فحسب بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل على المؤثر. فالإنسان وجد فى أواسط أوربية - مثلا - معاصرا للماموث والرنة" [١]

".وبعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيولوجيين اصطلح الأوربيون على قسمة الأدوار التى يعزفونها عن الإنسان الى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هى عبارة عن المدة التى مضت فى بداية العصر الجليدى إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لما هى عليه أوربية اليوم. ويقدرّون هذه المدة بألف قرن - أى مائة ألف سنة - [٢]

ثم يعرض الأمير للاختلافات التى وقعت بين علماء أوربا حول الدور الذى ظهر فيه الإنسان ، مثل ذكرهم الدور الثلاثى الذى سبق الدور الرباعى أو الجليدى واختلافهم حول إمكانية ظهور الإنسان فى هذا الدور وتحمله مالم تتحمله الحيوانات الكبيرة وفى عدم إمكان ذلك. "فبعضهم ذهب الى أن الإنسان وجد فى الدور الثلاثى بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شىء من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الإنسان فى الدور الثلاثى الى أن الأدوات المذكورة هى أحدث عهدا من ذلك الدور" [٣] .

ثم ينتهى الأمير إلى القول أن المفروض - مع الترجيح التام - أن الإنسان وجد فى الدور الرباعى .

ثم يسوق الأمير الأدلة والشواهد التى اعتمد عليها أصحاب نظرية التطور لإثبات أن الإنسان وجد فى العصر الرباعى ولكن على نحو أدنى من البشر الموجودين الآن ...

"فأما من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها متشابهة ، منها واحدة وجدت في جبل طارق ، وأخرى في (سبي Spy) من بلجيكا ، وأخرى في فرنسا ، ووجدوا من هذا النوع نفسه في أفريقيا الجنوبية في روديزيا ، فثبت من تشابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية في الدور الرباعي المذكور ، اصطلاح العلماء على تسميتها بطبقة (نياندرتال Neanderthal) وذلك لأن أول مثال منها وجد في واد اسمه وادي نياندرتال في المانيا" [١] .

ولقد تأكد العلماء ان أصحاب هذه الرمم بشر بما وجدوه معها من أدوات مصنوعة بالأيدي لا تدع شكاً في بشريتهم ، "ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جداً لرؤوس الحيوانات ، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجبهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقاً ، والوجه عريضاً ، والفكان ناتئ إلى الأمام ، والتقاطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأنف عريضاً مع ضيق في مركزه ، والذقن منقبضاً ، وغير ذلك من الملامح التي تثبت أن طبقة "نياندرتال" هي من الطبقات البشرية ، ولكنها أدنى من البشر الموجودين الآن..." وبالاختصار آدمي نياندرتال مكانه هو بين القرد والانسان الأخير .." [٢] .

وهنا تظهر مشكلة الإنسان الأول ، فعلماء النشوء والارتقاء يقولون : "إن إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنتروپونيد "Anthropoide" ولكن ثبت ان هذا النوع من الانسان وجد في اواسط الدور الرباعي ، ولهذا لايمكن أن يقال إنه أقدم نوع من البشر ، لأنه قد ثبت وجود آثار الانسان في أوائل الدور الرباعي.." [٣] .

يقول شكيب إن العلماء عندما وصلوا إلى هذه النقطة صاروا يتساءلون كيف يمكن التلقيق بين هذين الأمرين؟

"فذهب هيكل "Heackel" الألماني من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الإنسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذي يقال له "أورانج أوتان" [٤]

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ / (orang-outang)

هذه كلمة من لغة الملايو مركبة من مقطعين (أوران) أي رجل و (أوتان) أي غابة ، وهو قرد يشبه الإنسان لا ذيل له ، ولا أشداق مدلاة ، وهو يعيش في جزيرتي بورنيو و سومطرة ، ويمكن استئناسه إذا كان صغيراً ، كما يمكن تدريية على تادئة بعض الخدمات ...

(د.محمود قاسم ، جمال الدين الافغانى حياته وفلسفته ، ص ٢٠٦)

"وقال أصداد نظرية النشوء والارتقاء إنه لا يزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الإنسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسموا هذا النوع بيتيكانثروب "Pithecanthrope" فذهب بعض علماء أوربية إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمي نياندرتال وبين الآدمي المسمى بيتيكانثروب وبين هذا وبين القرد المسمى أورنج أوتان ، فليس يستلزم ذلك حتماً أن يكون الإنسان الحاضر هو من هذه السلائل ، بل إنسان نياندرتال انقرض فى أواسط الدور الرباعى ولم يترك بقايا" [١] . ثم يواصل الأمير فى وجوه الخلاف بين علماء النشوء والارتقاء وبين خصومهم الذين قالوا : إن الأثار البشرية التى عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مداراً للحكم ، وخالفهم الذين قالوا إن بين إنسان نياندرتال والإنسان الحالى وجوه شبه كثيرة وأنه لا يمكن الحكم بانقراض إنسان نياندرتال وتبدل منه إنساناً من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذى سموه بالإنسان العاقل "Home Sapiens" [٢] . ويعلق الأمير شكيب بقوله: "فإذا ثبتت نظرية الإنسان العاقل هذا فيكون قد انقطع ما بين الإنسان الحالى وبين الإنسان الأصلى الذى عاش فى النصف الأول من الدور الرباعى والذى يشابه القرد كثيراً" [٣] . بعد سلالة نياندرتال أخذ الأمير فى تعداد السلالات البشرية التى افترض علماء النشوء والارتقاء وجودها بناء على الرمم التى وجدها فى أوروبا ، فذكر اسم كل سلالة والمكان الذى عثروا على بقاياها فيه وصفة الهيكل الخاص بكل نوع والذى يدل على مدى قرب أوبعد صفات كل سلالة من هيئة الإنسان الحالى. وقد اختلطت هذه السلائل بعضها ببعض ، ومازال الإنسان يتكامل الى أن صار كما هو الآن ، ومازال يزداد بسطة فى العلم والجسم ، وقد بدأ بأن يصنع بيده فى الدور الرباعى وهو ما يسمى "بالدور الحجرى" فقد وجدوا حجارة مقطوعة من أيام هذا الدور ، ثم بمرور الزمان صار الإنسان ينحت الحجر المقطوع" [٤] . ثم أخذ الأمير يعدد تقسيمات العلماء للأدوار التى بدأ الإنسان فيها يعمل بيده ، وقد وضعوا لكل قسم اسماً مأخوذاً من أسماء الأماكن التى وجدت فيها بقايا صناعية يفترض أنها من صنع الإنسان الذى عاش فى هذا الدور. بعدها يذكر الأمير بالنقص فى الأبحاث التى اعتمد عليها علماء الغرب لوضع تقسيماتهم للأدوار التى بدأ الإنسان فيها يعمل بيده "لكون هذه التقاسيم كلها مبنية على الرمم التى وجدت فى أوربة ، والعلماء لا يعرفون شيئاً تقريباً عما

[١] : [٤] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ج ١ ص ٣٥ : ٣٨

وجد من رمم الانسان الأول فى سائر القارات ، ولكنهم يحكمون بأن النشوء والارتقاء حصل من القارات جميعا كما حصل فى أوربة على وتيرة واحدة [١] .

ثم يختتم الأمير تقديمه لخلاصة ما عند الاوربيين من نظريات حول نشوء الانسان وتطوره فيقرر انه مجرد ناقل لما يجب معرفته عن أهل هذا الزمان يقدمه لقراء تاريخ ابن خلدون حتى لا يفوتهم شئ مما يجب معرفته ولو من قبيل العلم بالشئ ولا الجهل به [٢] .

مذهب النشوء والارتقاء في الغرب

على الرغم من انتشار القول بالتطور بين الكثيرين من علماء الغرب، إلا أن مذهب النشوء مازال يواجه هجوماً شديداً من معارضيه الغربيين، ولم يقتصر رفض المذهب من علماء الأديان وحدهم بل لقد اعترض عليه علماء الطبيعة أيضاً وأقاموا أدلة علمية على فسادة كما طلبوا من دعاة تقديم أدلة علمية محسوسة على فعل الانتخاب الطبيعي في تحول الأنواع، ولاسيما نوع الإنسان.

ومن علماء الطبيعة من أيده وتحمس له مثل " هكسلي " صديق دارون وصهره - ولكن بقي تحمسهم له باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له إيماناً بحقيقته واعترافاً بكافة براهينه [١]. ومن العلماء الطبيعيين من ذهب مذهباً متوسطاً، فوافق على بعض قضايا المذهب الدارويني، ورد بعضها بحجة فقد الأدلة الكافية.

ولقد أورد الأمير شكيب أرسلان اعتراضات بعض العلماء الغربيين للمذهب ليظهر أن الحملة عليه في البلاد الغربية لم تكن أضعف من أشباهها التي قوبل بها في بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى.

يقول شكيب " وممن اشتهر في الرد على مذهب داروين الانجليزى، ولامارك الا فرنسى فى النشوء والارتقاء، الأستاذ " فيالتون Vialleton " المدرس فى جامعة مونيبييه، والأستاذ موريس توماس البلجيكي، وغيرها ممن يقولون ان مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم، وقال فيالتون: ان داروين قد ذهب فى نظريته مذهباً جاهلاً ماهية القواعد التى تترك عليها الجزئيات، وانخدع بعلاقات الانواع بعضها مع بعض، كما أن خلفاءه فى المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التى بين الانواع نظراً سطحياً، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كاف فى كيفية قيام هذه الانواع بوظائفها " [٢].

ثم أخذ الأمير فى عرض أفكار الغرب للأدلة العلمية التى أعتمد عليها النشويون لاثبات التطور، وهى مجرد علامات ووجوه الشبه لايعدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التى يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى تشريح الأعضاء.

[١] عباس العقاد / الإنسان فى القرآن ص ١٠٩

[٢] تعليقات الامير شكيب على ابن خلدون ص ٣٨ (Vialleton) عميد كلية الطب بجامعة مونيبييه و استاذ علم

الأجنة فيها. (عباس العقاد / الإنسان فى القرآن ص ١٣٢)

" فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الأثداء من الحيوانات اجتمدوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأثداء المتصلة بالطيور ، لكن اذا أنعم الانسان النظر لايجد هذه الرابطة فى محلها ، لان هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءا من هيكل الصدر ، بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات فالمشابهة ليست أكثر من مشابهة سطحية والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الأثداء لإتمتاز فقط بالنطاق الصدرى ، ولكن بمميزات أخرى ظاهرة فى جميع تكوينها ، وفى انسجتها العضوية ، وفى الجلد والشعر والعظام ، وكل مايعهد فى ذوات الأثداء .. " [١] .

" والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ، فداروين يرى أن أى عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فإن الأعضاء تؤلف مع الأنطقة آلات محركة لها فى كل نوع وظائف محدودة لايمكن أن عملها يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . وفى طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيار مثالا يجب أن الكتف التى كانت فى البطن تحت مركز النقل تضعد إلى الظهر لأجل أن تحفظ موازنة الحيوان عندما يطير ، ولولا ذلك لايمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه الكتف من جديد لايمكن أن يحصل بالتدريج ، ولا مناص من أن يكون وضع انفا بدون تدرج . كذلك ذوات الأثداء السابحة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى الى الأسفل ، فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقيا بدلا من أن يكون عموديا كما هو فى سائر ذوات الأثداء " [٢] .

وقد أحصى الأستاذ " شامبان بنشر " فى كتابه عن تحليل التطور العلامات التشريحية التى يستند إليها النشويون ثم عقب عليها قائلا : " انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القرودة كما نعرفها ، لأن القرودة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا ان يتطور منه تركيب الانسان ، اذا كان الانسان قد نماله خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد - فوق هذا وذاك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال " .

ويقول الأستاذ ث . ب . بيشوب فى كتابه " النشوء منتقداً " : فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات وأن تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشويون دليلاً على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لاتبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمانى الانست هكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الاجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الاجنة لنقص الرسم المنقول [١] .

والأمير شكيب يورد نص قول فيالتون : أن القول بأن الجراثيم تعيد فى أثناء نموها الصور المتتابعة التى سبقت نوعها هو قول مرسل جزافاً ، وهو أشبه بالمجازمة بالحقيقة ، ففي الجراثيم شيان ، البدايات البسيطة التى هى عامة لجميع النوع ثم الأجهزة والصور التى تتلو هذه البدايات . فالبدائيات لا يمكن أن تكون منها نوع خاص ، لأنها حويصلات بسيطة جداً شبه ببراعم تختلف كثيراً عما سيأتى منها ، بل هى بدايات ساذجة عامة لا ينتج منها اقسام خاصة الا بعد النمو ، فالحوصلة لا يمكن ان تشبه حيواناً تاماً مهما كان دنىء الطبقة ، ولكن تشبه حويصلة . والحوصلة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمكة فى جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حويصلة السمكة قبل أن يكتمل فيها هذا الجهاز .. [٢] .

[١] عباس العقاد ، الانسان فى القرآن ص ١٠٥

> حلما بحث الدكتور (برانس) مذهب (هكل) ، ونظر فى تلك الصور التى استند إليها وجد أنها لم تكن كلها صادقة ، بل بعضها مزوراً . فإن الصورة الثانية والعشرين تبدئ باليسيط والصورة الرابعة عشر التى سماها السوزور والصورة الواحدة والعشرين التى سماها (الإنسان القرد) لم يكن لها وجود البتة . فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنه مزور لهاتين الصورتين ، فهدهم برفع دعوى ثم وجد أنه لا مناص من الإقرار ، فكتب مقالة مؤرخة (٢٤ ديسمبر ١٩٠٨) بعنوان : (تزيوير صور الأجنة) قال : إنى أعترف رسمياً حسماً للجدل فى هذه المسألة ان عدداً قليلاً من صور الأجنة نحو ستة فى المائة أو ثمانية فى المائة موضوع أو مزور إلى أن قال : (فبعد هذا الإعترا ف يجب أن أحسب نفسى مقضياً على و هالكاً و لكنه يعزىنى أن أرى بجانبى فى كرسى الإتهام منات من شركائى فى الجريمة و بينهم عدد كبير من الفلاسفة المعول عليهم فى التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيولوجيا) فإن كثيراً من الصور التى توضح علم أبنية الأحياء و علم التشريح و علم الأنسجة و علم الأجنة المنتشرة المعول عليها مزور مثل تزويرى تماماً لا يختلف عنه فى شئ << .

(قيس القرطاس <خطرية داروين بين مؤيديها و معارضيها> ص ٢٣-٣٤)

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٣٩

ويكتفى الأمير شكيب بما أورده من ردود مفكرى الغرب وعلمائه على مذهب دارون ، ويحيل من أراد التوسع فى هذا الموضوع الى كتاب فيالتون المسمى : " بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء " .

ثم ينتقل الأمير للحديث عن أثر مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق وما قوبل به من الاعتراض ثم الرد عليه من قبل المفكرين وقراء العلم ورجال الدين الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه .

مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق العربى

لقى مذهب النشوء والارتقاء فى الشرق العربى مثل مالقيه من التحريف والإعتراض فى البلاد الأوربية ، ولقد تصدى للرد عليه فى الشرق العربى نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية .

يقول الأمير شكيب : " ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربى الدكتور شبلى شميل اللبناى ، نشر فى ذلك كتابا فى مصر ضمنه مذهب داروين الإنجليزى ونجز الالمانى وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادى مجاهرة لم تسبق لأحد غيره فى الشرق ، ورد عليه اذ ذاك الأستاذ الشيخ إبراهيم الحورانى من علماء المسيحيين الذين يردون المذهب المادى . وكذلك رد عليه اليسوعيون فى بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين " [١] .

والأمير يشير فى هذا الإيجاز إلى المناقشات التى اشتدت بين منكرى المذهب ومؤيديه فى الشرق العربى بعد إعلان المذهب على يد الدكتور شبلى شميل وهو أحد أنصار مذهب النشوء ومن أشهرهم وأفصحهم بيانا فى الشرق العربى ، حتى أنه كان يسبق دارون وأصحابه الى الاخذ بالنظريات النشوءية على علاتها وإلى نفى كل صفة روحية أو غيبية فى الانسان " إذ قال فى مقدمة ترجمته لشرح نجز على مذهب دارون : " أن الإنسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو اضر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا فى ذهنه رسوخ النقش على الحجر فالإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس تركيبه فى شىء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحیوان فزیولوجیا وكالجماد كیمایویا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصور لا الماهية والعرض لا الجوهر فالإنسان يحس ، والحيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما ... غير أن الانسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان " [٢] .

[١] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٤٤

[٢] الإنسان فى القرآن ، العقاد (مرجع سابق) ص ١٣٤

وقد تصدى للرد على الدكتور شبلى شميل الأستاذ إبراهيم حورانى - وهو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية - الف فى الرد على مذهب دارون رسالة " مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء " ثم اتبعها برسالة " الحق اليقين فى الرد على بطل داروين " وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور شبلى شميل لرسائله الاولى .

والأستاذ حورانى يبدأ رده بذكر آراء علماء الطبيعة المخالفين لداروين فى القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال : " أن العلماء لم يثبتوا مذهب دارون وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل الله ... ومنهم العلامة ولاس قال ماخلاصته ان الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا ... ومنهم الأستاذ فرخو قال أنه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا ان نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن ان نفوه بذلك [١] .

ويرى الأستاذ حورانى ان أنصار مذهب النشوء ينقسمون إلى ثلاث فرق : معطلة ولأدرية والهيبة .. " أما المعطلة فهى التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما اللأدرية فهى التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهى التى اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة ، وانقسمت هذه الفرقة الى اثنتين ، ظنت احدهما الانسان ابن القرد او صنوه ومنها داروين ، وقالت الاخرى بان الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة اصحاب النشوء الالهى الذى قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا " [٢] .

ثم أورد الأستاذ حورانى إحصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال أن ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة - لاسلف لها . وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شىء من بقايا الحفريات .

[١] المرجع السابق نفسه ص ١٢٤

[٢] المرجع السابق ١٢٤ - ١٢٥

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الاجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان على هذا التشابه " ببساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل ان التباين يعظم على توالي اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنثه سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز إلا اللوز " [١] .

ويحيل النشويين الى بحث التيرانولوجيا - أى المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التى تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها (الأعشى) أى من له ستة أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهليلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتتين والأفخاذ والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجيا والأخلاق [٢] .

وقال عن الانتخاب الطبيعي أنه لا يمكن " أن يكون أس الارتقاء الدارويني لأن الطبيعة انما تؤثر فى الموجود ، وليس لها ان توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون ... ولكنها لاتستطيع أن توجد البصر " ، " ويقضى مذهب داروين أن لاتجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى والثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحياء " [٣] .

أما رأي الأستاذ حوراني فى مسألة قدم الإنسان فيظهر فيه تأثيره بما جاء فى التوراة حول تقدير عمر الإنسان ، فمذهب داروين يقتضى أن يكون الإنسان قديماً جداً " ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشويين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان من بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان فى ثاني العصر الجليدي وهو المعروف بالأكثر أحدثية .. وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين فى زمن نشوء الإنسان فانفقت على أنه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ... [٣] .

أما ردود الدكتور شبلى شميل على مناقشته فكانت تكراراً لردود داروين ونجر وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١- ان التباينات بين الأنواع لاتزيد على التباينات بين أفراد لنوع الواحد الا بالوراثه ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الانسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

[١] ، [٢] المرجع السابق ١٢٤ - ١٢٥

[٣] المرجع السابق

٢- وإن أنصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز الفميز للنوع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التماسك بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه " اكتشاف الطير العجيب - الاركوبتركوس - الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات " [١] .

٣- إن العلماء يخطئون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون " أن النباتات الإنجليزية وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عددا غير أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر في هذا المعنى مانصه : إن النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النباتات ، فالنوع إذن غير محدود " .

٤- ان التحولات لا ينبغي أن يبحث عنها في الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له في سلسلة هي التي كان يمكن أن يجرى بينها التحول في أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها [٢] .

وفي إبان إحتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه نشر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة أستاذة جمال الدين الأفغانى المعروفة باسم " الرد على الدهريين " وفيها يتعرض لمذهب النشوء والارتقاء ويناقشه ، ويرد على ما جاء فيه من نظريات .

وقد دافع الأمير شكيب أرسلان عن خوض الشيخ جمال الدين في نظرية يلزم للخوض فيها التخصص في العلوم الطبيعية فرأى أن هذا الاعتراض على الشيخ ليس بشيء ، " لأن التخصص شرط المباحث التفصيلية ، فأما في المبادئ العامة فالذى يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعا وأفسح نظرا كان أحق بأن يتكلم بها ، فالسيد جمال الدين إذا يقدر أن يقول هنا " [٣] .

ونقل الأمير فقرات من كتاب الشيخ جمال الدين المعروف " بالرد على الدهريين " يناقش فيها مذاهب الدهريين في كيفية نشوء مبادئ الحضارة الانسانية ووضع أصول الأنواع ، ويخوض خلالها في مناقشة نظرية النشوء والارتقاء .

[١] المرجع السابق

[٢] المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥

[٣] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٤٠

قال السيد جمال الدين : " ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين ، الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية ، فذهب فريق إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ إلتهاب الأرض فى التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الارضى ، وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصا فى خط الإستواء حيث تشتد الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية او حيوانية خصوصا بعد ما تبين لهم أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم ، موجب لا لتأمامها ، حافظ لكونها . وأن قوتها العادية هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حيا بالتغذية فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبتها ، ثم صارت إلى الانحلال . وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من أن الارض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة ، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها فى تلك النيران المستعرة ؟!

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (يقول شكيب : وصل السيد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحولها من حالة الخداج والنقص ، الى مآثره من الصور المتقنة ، والهيآت المحكمة ، والبنى الكاملة ، فمنهم قائل : إن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية ، وتجذب إليها مايلانمها من الأجزاء الغير الحية ليصير جزءا لها بالتغذية ، ثم تجلوه بلباس نوعه . وقد غفلوا عما أثبتته التحليل الكيماوى من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور ونطفة - الحمار مثلا - وظهور تماثل النطف بالعناصر البسيطة . فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة - خصوصا الحيوانية - متماثلة فى الجوهر ، متساوية فى الحقيقة ، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ، ولا انفصال ذاتى . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات ، وقضاء سلطان القواسر الخارجية.

ورأس القائلين بهذا القول "دارون" وقد ألف كتابا فى بيان أن الإنسان كان قردا ، ثم عرض له التنقيح والتهديب فى صورته بالتدرج على تتالى القرون المتطاولة ، وتأثير

الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ "أوران أوتان" ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان فكان صنف "النيم" وسائر الزئوج ، ومن هناك عرج بعض أقراده الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الإنسان القوقاسى ..

"ويشير الأمير هنا إلى أن الدارويين يستندون فى التشوء والارتقاء على جمامج وجدت فى أوربة تحت الأرض ، وليست هذه الجمامج وهذه الهياكل أقرب إلى الإنسان القوقاسى منها إلى الإنسان الزنجى ، ولا تعنى بالعكس ، بل هى ناقصة عن كل منهما".

ثم يقول السيد جمال الدين: "وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك !!"

وعلق الأمير شكيب على قول السيد هذا عن مذهب داروين بأنه لا مبالغة فيه "لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هى منشأ التنوع وأن كرور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدى الى ما يظهر عجيباً وربما يظهر مستحيلاً وليس الأمر كذلك عندهم ، وأن الذى جعل كيمائياً كبيراً مثل (برتلو) يسمى مذهب دارون قصصاً متسع الخيال ، وهو حكم داروين بأطراد هذا المبدأ فى المخلوقات".

ثم يستمر الأمير فى عرض مناقشة السيد جمال الدين لنظرية دارون ، يقول السيد جمال الدين: "فإن سئل دارون عن الأشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ الاظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيتها ، وأشكال أوراقه وطوله ، وقصره ، وضخامته ، ورقبته ، وزهره ، وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والهواء والماء ؟ أظن لاسبيل الى الجواب سوى العجز عنه !!

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور ، والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو الى تربة جديدة تخالف تربتها ، فماذا تكون حجته فى علة اختلافها ؟ كأنها تكون كسفاً لا كسفاً !.

بل إذا قيل له : أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها ؟ أى مرشد أرشدها الى استئمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ، ووضعها على مقتضى الحكمة

وإبداع كل منها قوة على حسبه ، ونوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة ، وإيفاء عمل حيوى ، مما أعجز الحكماء عن إدراك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد مناقعه . وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية ؟ لاريب أنه يقبع قبوع القنفذ ، وينتسكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الأبدن الخ " .

ويمضى السيد جمال الدين فى إبطال المذهب فى جملته وتفصيله ويفند الأدلة التى اعتمد عليها النشويون لإثبات نظريتهم مثل الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية فيقول : " إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتین مختلفین حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة مما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ... " [١] .

ولكن الأمير شكيب لا يمضى مع الشيخ جمال الدين فى منحى الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب ، بل يتوقف عند قول الشيخ : (لا يزال يرفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الأبدن) ويقول عن هذا القول الأخير (ما أحسنه) لأنه " لا دارون " ولا " مارك " ولا " تجز " ولا خصومهم الكثيرون فى أوربا ، ولا " السيد جمال الدين " يقدر واحد منهم أن يقول قولا فى معضلة كهذه ويسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، وإنما هى نظريات يترجح بعضها فى نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقوم فى وجهه ما يمنعه من الجزم " [٢] .

فالأمير شكيب أرسلان لا يجزم برفض المذهب بل يرى أنه يستحيل القطع بشئ لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة ، هذا مع الإيمان به - إذا ثبت - لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلىة فى الخالق عز وجل وفى القرآن الكريم الذى لم يحدد مدة زمنية لبدا الخليفة ووجود الإنسان بل قال تعالى : " ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم " :

" فعلم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرده لا ينتهى . وكيف يمكن أن ينتهى والآثار التى بنى أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هى

[١] جمال الدين الأفغانى ، الرد على الدهريين ، من ص ١٨ الى ص ٢٣ (تعليقات شكيب على ابن خلدون)

[٢] تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون ص ٤٣

آثار ضئيلة جدا ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير !!
وقد اعترفوا هم - يقصد النشويين - بأن كل ماعثروا عليه في باطن الأرض إن هو
إلا هيكلان أو ثلاثة في القارة الأوربية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء في القارات
الأخرى التي هي أوسع من أوربة بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة
ومنحصرة في بقعة واحدة ، فإنه يستحيل القطع بشيء " [١] .

تعقيب

وأمام هذه النهاية تبقى (القضية) أن هؤلاء الذين اعتنقوا المذهب المادي لم يقفوا أمام أي تناقض ، بل لقد عمدوا إلى الأدلة العلمية فحرفوا فيها وزوروا ولفقوا كما فعل (هيكل) في تزوير صور الأجنة واعترافه بذلك ، بل وفي اتهامه لعدد من العلماء ووصفهم بأنهم شركاؤه في الجريمة .^(١) وكما حدث في قصة اكتشاف جمجمة إنسان (بليتدون) وكانت تجمع بين الجزء العلوي وله صفات بشرية لاشك فيها ، بينما الفك الأسفل يحتفظ بالعظمة القردية ، ولكن هذه (الجمجمة) التي أقامت الدنيا وأقعدتها وكانت دليلاً قاطعاً على صحة نظرية التطور اختلف العلماء في شأنها ، هل تعود لمخلوق واحد أم لمخلوقين «على أن الطامة الكبرى قد وقعت فيما بعد فاكتشف العلماء في سنة ١٩٥٣م أن بقايا إنسان (بليتدون) مزيفة ، وأنها زيفت عمداً بواسطة مكتشفها مستر داوسون المحامي بقصد خدعة العلماء»^(٢) فلماذا كل هذا الغش والتزوير اللذين شوها الجو العلمي تشويهها بليفاً ؟ إن الإجابة التي لا مفر منها أن أصحاب المذهب المادي يرمون إلى هدف أبعد بكثير من الوقوف عند حدود نظريتهم المادية ، فهم «يهدفون إلى غاية يريدون تأكيدها بعملهم الناقص ، وتلك الغاية هي إنكار الألوهية واستقلال النفس وخلودها ، حتى يستطيعوا التحليل من الدين أو النزول إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي يتخذون حياته مثلهم الأعلى»^(٣)

١ - قيس القرطاس ، نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيه (مرجع سابق) ص ٣٣-٣٥ .

٢ - المرجع السابق نفسه ، ص ٨٧ .

٣ - د. محمود قاسم ، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته ، ص ٢١٣ .

رأى الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

obeikandi.com

رأي الأمير شكيب أرسلان في المبادئ الشيوعية والإشتراكية

تنبه الأمير شكيب منذ وقت مبكر للخطر الذي تمثله المبادئ الشيوعية والإشتراكية على العالم الإسلامي ، وأكد أن « الشيوعية لابد من أن تنفذ مبادئها إلى البلاد الإسلامية مهما حاولوا وحاولت دول الاستعمار من مقاومة سريانها إلى الشرق »^(١) وذلك لأن بلاد الإسلام أصبحت مهددة لتقبل ذلك الخطر القادم ، « فالمسلمون إلا النادر أهملوا الزكاة ونهأونوا بفرائض الدين لذلك هم مهددون اليوم بخطر الإشتراكية »^(٢)

ويرى الأمير أن « المبادئ الإشتراكية » تبث روح التباغض والشحناء وإثارة حرب الطبقات والشقاق في الأمم التي تنتشر بينها ^(٣) ، ومن خصائصها الخطيرة أنها تقوم مقام العقيدة الدينية ، فتتفني الجنسية والقومية ، « إذ كما أن المسلم لابد أن يعترف بإخاء المسلم أيا كان أصله وفصله ، فالإشتراكي لابد أن يتضامن مع الإشتراكي في أي وطن كان ، ومن أي أمة كان ، وإن فضل الوطنية على الإشتراكية ، كان شأنه شأن المسلم الذي يفضل القومية على الإسلام »^(٤)

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تشتمل عليه من مبادئ التكافل والتراحم بين المسلمين ، وبما تفرضه على كل مسلم من أوامر إلهية لا محيد عنها من إيتاء الزكاة - بكافة أنواعها - على الوجه الشرعي كقيلة بأن تحفظ للمجتمع المسلم وحدته وتماسكه في وجه الفتنة القادمة على شريطة أن تقوم الدول الإسلامية بفرض الزكاة ، التي هي ركن من أركان الإسلام على الوجه الشرعي ، وأن يكون لها وزارة أو إدارة في كل حكومة إسلامية ، تنظم أمر استيفائها ، وطريقة انفاقها ، فينتفي بذلك كل فقر وكل خصاصة بين المسلمين ، ويقل تفاوت الطبقات في درجات الرفاهية ، وتتوفر وسائل التمريض والمزاولة والتعليم ، وتشمل نعماتها الجميع بدون منه غني على فقير ، ولا اعتداء كبير على صغير ، بحيث إذا دخلت الإشتراكية على بلاد الإسلام ، دخلت بدون ضوضاء ولا شقاق ، بل كانت سببا لإحياء فرض من أقدس فروض الدين ألا وهو

ويرى الأمير أن الشريعة الإسلامية بما تفرضه على المسلمين من زكاة هي أوامر إلهية لا محيد للمسلم عن إنفاذها إذا أراد أن يبقى مسلماً ، وقد ورد ذكرها مقروناً بذكر الصلاة مراراً عديدة في القرآن الكريم ، لذلك فهي أوثق ، وأمتن ، وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون من المبادئ الاشتراكية المعروفة في أوروبا والتي هي أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم (٢)

فالإسلام ليس بحاجة إلى الشيوعية ، والشرائع السماوية أقرب إلى المساواة ، وأرفق بالضعف ، وأحذب على الفقر من القوانين البشرية (٣) ، هذا مذهب الأمير شكيب أرسلان الذي دعا إليه دائماً ، حتى عندما التقى في سنة ١٩٢٧م وهو يزور موسكو «بمدام كولونتاي» الروسية التي يسميها الروس «أم البلاشفة» والتي كان لها اليد الطولي في الثورة التي أطاحت بعرش قيصر ، وأقامت الحكم البلشفي ، وفي أثناء حديثها مع الأمير شكيب أرسلان تخاوره حول الشيوعية ، فيجأه (شكيب أرسلان) بأن البلاد العربية ليست بحاجة إلى الشيوعية لأن المبادئ الإسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، ويشرح لها هذه المبادئ فتعجب بها . (٤)

وفي حديث شكيب مع (مدام كولونتاي) يتحدث عن فنون الأوقاف الإسلامية في البلاد الإسلامية ، وهو يقصد أن يعدد وجوه المساعدات الاجتماعية التي أوتحت بها الروح الإسلامية ، فيذكر أن الزكاة ليست هي كل ما يتفق في وجوه الخير ، فهي الفرض المحتوم الذي لا مناص منه أولاً ، ثم هناك في المجتمع الإسلامي بعد هذا مؤسسات خيرية تسمى (الأوقاف) ، تبلغ نحو الثلث من أملاك المسلمين وجميعها محبوسة العين ، أي لا يجوز بيعها أو التصرف فيها ، وهي مرصودة الربع على وجوه البر وأنواع الإعانة

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ص ٣٦٢ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٦٢ .

٣ - شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٤ ص ٥٣٥ .

٤ - شكيب أرسلان ، الشورى عدد ١٩٢٧/١٢/١٥م (عن «شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام» ص ٢٠٨) .

لبنى الإنسان .

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجانين ، ودور لعلاج المجاذيم ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع الحساء (المرق) ، ومنها مؤسسات لأشياء لا تخطر على بال الأوربيين ، ولا يتنبه لها ولا يرصد لها الأرزاق الكافية إلا الأمم التي بلغت الشأو البعيد في الإنسانية .^(١)

ولقد بنى الأمير شكيب أرسلان رأيه في هدم الشيوعية على (حقائق الإسلام التي تتوج ما دعمه الفكر الإنساني والنظر العلمي التجريبي)^(٢) ، فبين التناقض الذي يقوم عليه الفكر الشيوعي فعلى الرغم من أن الشيوعية دعوة مادية تنكر الأديان كلها ، وتهدمها من أصولها ، وتقتلعها من جذورها ، لأنها تعترف بغير المادة ، ولأنها تصرح بأن الدين وهم ، وبأنه مخدر يتعزى به الفقراء والكادحون ، فيصرفهم عن الكفاح في سبيل نيل حقوقهم إلا أنها تقيم (العقيدة الشيوعية) محل (العقيدة الدينية) وتقلدها في معالمتها الرئيسية «حيث نشاهد الماركسية تتحول إلى بديل عاطفي وثقافي للمسيحية الأرثوذكسية مع إحلال ماركس محل موسى عليه السلام ولينين مكان المسيح عليه السلام وقيام مجموعة أعمالهما بدور الكتب المقدسة لهذه الديانة الإلحادية»^(٣) أو ما يسميه شكيب أرسلان ، «إنجيل البلشفية الجديد» .

فهذا هو (شكيب أرسلان) يتكلم عما يبذله البلاشفة من جهود في الشرق وفي العالم الإسلامي ، إذ «يهمسون في آذان الشعوب المغلوبة على أمرها ، الناقمة الساخطة (إنجيل البلشفية الجديد) ، حملاً لهم على الهياج والشغب ، ثم الانتفاض والثورة ، فكل حركة وطنية ومطمح قومي وسخط سياسي ومظلمة إجتماعية وتحكيم جنس في جنس ، جميع ذلك من الوسائل التي يتخذها البلاشفة وقوداً لنار الهياج ، فالانتفاض ، فالحرب»^(٤)

١ - المرجع السابق ص ٢٠٩-٢١١ .

٢ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٤ .

٣ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٠٠ وما بعدها .

أما القول بأن الدين أفيون الشعوب ، فمن الجهل وصف الإسلام بالأفيون فإن من المعروف أن الإسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، بل لقد ذهب أعداء الإسلام الذي لاحظوا أنه لا يمكن إتهامه بتحسين الجبن أو الاستكانة لاتباعه بوصفه بنقيض ذلك ، وببالغوا فيما وصفوه فيقولوا عنه إنه دين السيف أو دين القتال .^(١)

وبين الأمير (شكيب أرسلان) ذلك فيقول : إن الزعم بأن الإسلام مبني على الخضوع للقوة القاهرة كذب محض ، واختلاق - من القاتل - ، فإن الإسلام أمر بأوامر ونهى عن نواه لا بد للمسلم أن يجري عليها إذا أراد أن يبقى مسلماً ، مهما وقف في طريقه ولو ذهبت بذلك نفسه ، وهذا مبسوط في كتب الشريعة .. ، وليس للمسلم أن يتقي في دينه إلا في بعض نقاط لا يكون فيها خطر على وجود الإسلام»^(٢)

ويمضي شكيب في تأكيد حرص الإسلام على عزة المسلم وعدم استسلامه لقوى الظلم والقهر ، فيقول : «ولو كان الإسلام مأموراً بالاستسلام للقوة الغالبة ، لما قاوم الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً وهي أقوى منه ، ولا قاوم الخلفاء الراشدون تلك الأمم ودوخوها وهم لمي يكونوا شيئاً بالقياس إلى ما كانت عليه تلك الأمم . كلا ، فالإسلام مبني على العزة وعدم المبالاة بالحياة ولا بالمال في الذب عن شريعة الإسلام ، وإن القرآن ملآن بذلك والحديث الشريف مستفيض به ، وما سقط الإسلام إلا بعد أن فتر عمل أهله بتلك الآي ، وغلبت عليهم «كراهية الموت وحب الدنيا» وفقاً للحديث النبوي الذي أنبأهم بالحالة التي وصلوا إليها وبالأَسباب الداعية إلى حصولها ، وهو حديث «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على القصاع ... الخ»^(٣)

١ - د. مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢١٥ (مرجع سابق) .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

وشكيب يرى أن الدين ضروري للبشر ، وما ثورات (الإلحاد) إلا غمرات ثم تنجلي ، أو فورات ثم تخدم ، وأن النزغات الإلحادية التي تعرض للمجتمع الإنساني في بعض الأوقات ليست إلا عوارض مؤقتة ، لا تستطيع أن تكسب شكلاً عاماً ، ولا أن تستقر وتدوم ، ولا أن تقوم مقام العقائد الضرورية للبشر .

ويقرر شكيب أن التاريخ ينبئنا بأن أمائيل لهذه النزغات وقعت ، حيث عصفت ريح الإلحاد في بعض الحقب ، ثم زالت واستقر الإيمان ، وعاد الأمر كما بدأ .^(١)

ويحذر شكيب (ملاحظة) المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحقيقة ما ينطوي عليه هذا الفكر المادي من محاولة إقامة النهضة العلمية في البلاد الإسلامية على أسس (مادية) لادينية ، فيقول «إننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحة وعبادة الأبدان ، واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوق نفعه»^(٢)

ولقد صدق استشعار الأمير (شكيب أرسلان) للأمور قبل وقوعها ، وسبق عصره في توقع ما أصاب العالم الإسلامي ، بعد أن انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فجاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه .

وقد بين (شكيب أرسلان) أن هناك غرضين جد وراءهما البلاشفة : «غرض عاجل ، وهو محو التفوق الغربي سياسياً واقتصادياً محوً تاماً ، وغرض آجل ، وهو بلشفة الشعوب الشرقية .. أما في الدور الأول : فالبلشفية مستعدة تمام الاستعداد لإحترام الأديان والعادات والتقاليد الشرقية ، والأخذ بنصرة الحركات الوطنية في الشرق ، أما في الدور الآخر فالأديان ، مثل الإسلام ستقوض تماماً»^(٣)

١ - شكيب أرسلان ، الإرسامات اللطاف ، ص ٨٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخى المسلمون ؟ ص ١٣٨-١٣٩ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي (مرجع سابق) ص ٢٠٠ ، وما بعدها .

obeikandi.com

الباب الثالث

الفصل الثاني

الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد : شكيب أرسلان بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)

- تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية :

- استقلال النظام الاسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)

- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

- الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد

- الجامعة الإسلامية

- الجامعة العربية

- آراء الأمير شكيب أرسلان في التربية

- بعث (المدنية الاسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية)

تمهيد : شكيب أرسلان

بين (الإصلاح الديني) و (الإصلاح السياسي)

كلمة «الإصلاح الإسلامي» من الكلمات الاصطلاحية التي إن لم يتحدد معناها بدقة حتى يكون لها شكل واضح لا لبس فيه ولا إبهام ، كانت مشار خلاف بين الناس ، وأدخلت في باب الإصلاح ما ليس منه .

فإن كان فهمنا «للإسلام» بأنه هو الذي كان عليه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم وأصحابه مصابيح الهدى رضوان الله عليهم كما فهمه منهم التابعون لهم بإحسان ، فمن الإصلاح الاسلامي تجريد الاسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه ، ومن الإصلاح الإسلامي بث روح النشاط في المسلمين لإحياء مقاصد دينهم وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه في الدعوة إليه وتأليف الكتب في حقائقه وأحكامه وتاريخه ، ومن الإصلاح الإسلامي تعويد المسلمين على حسن تمثيل الإسلام بأن يتخلقوا بأخلاقه ويتعاملوا بأدابه وينشئوا أبناءهم عليه حتى يكونوا جنوده في الحمية له ، وأولياءه في السرور بانتشاره واعتلائه ، والحزن لما يصيب أهله من سوء حيشما كانوا^(١) .

من هذا المنطلق في فهمنا لمعنى (الإصلاح الإسلامي) نستطيع أن نميز ملامح الخط الإصلاحى الذي سار عليه الأمير شكيب أرسلان .

فقد انطلق الأمير شكيب أرسلان في دعوته الإصلاحية من مقدمة كبرى ، هي صلاحية الإسلام في جوهره لجميع العصور ، وما الوهن والانحطاط الذي ينعي على الشعوب الإسلامية إلا نتيجة تقاعس المسلمين أنفسهم ، ودسائس الأجانب ومكائدهم ، لا نتيجة فساد ذاتي في معتقدهم الديني - كما يزعم الخصوم - فهذا المعتقد يتركز على ركائز العقل ويقول بالحرية والاختيار وينكر التواكل والخمول ، ولكن المسلمين قد ضلوا السبيل وتنكبوا عن الإبتداء بهدي دينهم ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من

الإنحطاط والجمود .

ولللخروج من هذا المأزق يجب أن يبعث الإسلام من جديد ويظهر من الشوائب التي لحقت به في غضون تاريخه الطويل ، والرجوع الى نهج السلف الصالح ، الذين أرسوا قواعد العقيدة الإسلامية .

يقول الأمير : « إن أسباب الارتقاء كانت عائدة بمجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جيداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ... فالقرآن قد أنشأهم إذا نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ويتمكنون من الأرض بطولها وعرضها » (١)

ولم يقف الإسلام عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل أسهم في بناء مدينة عربية إسلامية وضاعة دانت لها الدنيا سحابة قرون ثلاثة أو أربعة (٢) .

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ٤١ .

٢ - يقول شكيب : « .. وقد بقي دور العرب هو الأول في وقته ، ولبثوا هم المسيطرون في الأرض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يغالهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة ، ثم أخذوا بالإنحطاط ، وجعلت ظلالهم تنقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفقر الهمم ، وديب الفساد إلى الأخلاق ، ونبد عزائم الدين » لماذا تأخر المسلمون ؟ ص ١٢٤ / ١٢٥ .

ويؤيد الدكتور فهمي جدعان في كتابه : (أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العصر الحديث) ما ذهب إليه شكيب أرسلان بتحديد مرحلة التنوير في تاريخ الحضارة الإسلامية زمنياً بالقرون الأربعة الأولى للإسلام ، وذلك عندما قسم المراحل الثقافية - الإجتماعية لتاريخ الإسلام والعرب حتى يومنا الحاضر بأربعة مراحل هي :

(١) مرحلة التنوير وبناء الحضارة ، حيث تشمل زمنياً القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام .

(٢) مرحلة التوقف الحضاري والتوازن ، وتشمل القرن الخامس الهجري .

(٣) مرحلة الإنحطاط واختلال التوازن ، وتبدأ مع الغزالي حتى نهاية القرن الثامن الهجري ، وما تخلل هذه الحقبة من ركود وجمود على الصعيد الفكري ، متلازمة مع وقائع تاريخية مساعدة لهذا الخلل (سقوط الخلافة ، انحسار الوجود العربي ، الغزو التتري ، والمغولي والصليبي) .

(٤) مرحلة اليقظة والنهوض : وتبدأ مع العلامة ابن خلدون ومقدمته في البحث عن أسباب وعلل الإنحطاط وصولاً إلى مرحلة الإستعمار الأجنبي للعالم العربي ومواجهته بالمدينة الغربية وما نتج عن ذلك من صراع وتوتر فكري =

• يقول الأمير : «ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المباحكة ، إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيين أو الإنكليز أو الطليان الخ ... إلا وعندهم تأليف لا تحصى في مدنية الاسلام ، فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعة مبنية على كتابة وسنته ما كان علماء أوروبا ، حتى الذين عرف منهم بالتحامل على الاسلام ، يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد توارخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها » (١)

• فهدف الأمير شكيب من حركته الإصلاحية هو إظهار قوة الشرع الاسلامي على إدارة المدنية الحاضرة واتساعه لكل ضرب من ضروب الرقي الصوري أو المعنوي بدون أن يقلق وجدانه المؤمن أو تتدخل عقيدته ، وبحيث تحبط آمال الاستعمارين الذين يحتالون لوضع الاسلام في موقف المعاند للمدنية .

وجذور هذا الخطر الإصلاحي لدى الأمير شكيب نجدها واضحة في دعوة الشيخ الأفغاني والإمام محمد عبده ، ولا عجب في ذلك فقد ذكرنا أن شكيب تتلمذ على الشيخين ورأى في فهمهما للعقيدة الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالإسلام .

يقول «د. الدهان» في امتداد خط الأفغاني الإصلاحي من خلال محمد عبده ثم شكيب أرسلان : « كان الشيخ (الإمام) يردد في مجالسه ما تلقنه على يد جمال الدين الأفغاني من سعي الى الإصلاح وحب للإسلام وذود عن كرامته وتأليف فيه وعمل له ، وكان الإمام لا يفتر عن الحديث في رفع مستوى الأمة وتقديم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية عن سبيل الثقافة والعلم ، في وعي صحيح وفهم عميق لا يسير في تقليد الغرب تقليداً أعمى وإنما يسعى في تربية العقول والنفوس .. وأصاخ شكيب إلى هذا كله واستهوته أحاديث محمد عبده عن شخصية جمال الدين الأفغاني .. هذا اللقاء بين الإمام والفتى كان نقطة تحول الأمير الناشئ صرفته عن الخيال والأحلام إلى واقع

= وثقافي ما يزال حتى أيامنا . د/فهمي جدعان ، أسس التقدم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت

١٩٨١م .

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ١١٩ .

العرب والمسلمين وأحلامهم والتقدم بهم ورد الاستعمار عنهم» (١)

كان الإمام محمد عبده الحلقة التي ربطت شكيباً إلى حركة الإصلاح التي تزعمها جمال الدين الأفغاني ، لكن شكيباً لم يكن مجرد تابع في فكرة لفكر أستاذه بل أسهم بوعيه وحسه الفلسفي القادر على ربط ما تفرق وتشتت من معطيات ووقائع ثم ردها إلى مبادئها ، وهو كذلك استمرار شجاع للخط الإصلاحي ، في تعميمه وتعميقه والدعوة له ، كما سعى بكل طاقته إلى تحويله واقعاً فعلياً في السياسة والثقافة والإجتمع .

إن أهم ما قدمه الأفغاني هو ربطه الإسلام الصحيح بالنضال السياسي والاجتماعي الذي يعني تحديداً وحدة الشعور الإسلامية القادرة وحدها على رد غائلة التدخل الأوروبي (٢) ، وكان يرى أن ما أمكن تحقيقه في بدء (المدنية الإسلامية) وازدهارها ، والإنجازات العسكرية التي حققتها في صدر الإسلام «يمكن أيضاً تحقيقه وذلك بقطف ثمار العقل ، أي علوم أوروبا الحديثة وإعادة بناء وحدة الأمة» (٣).

«ورغم أن محمد عبده قد صاغ برنامجاً عملياً يقوم على (التربية) مدخلاً إلى (الإصلاح) والتغيير» (٤) منتقداً اعتقاد أستاذه الأفغاني أن العمل السياسي الصرف كفيل بأن يوصل الأمة إلى الإصلاح المطلوب ، فهو يلتقي مع أستاذه في معظم مبادئه وقناعاته وغاياته ، «فهو يلاحظ ، كما الأفغاني ، أن المجتمعات الإسلامية تعاني انحطاطاً أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً يبلغ حد الأزمة والداء ، لكن علة الأزمة والداء لا تقوم في الإسلام ولا في أركانها ، وإنما في الحال الذي انتهى إليها تفكير المسلمين» (٥)

ويرى محمد عبده : أن الإسلام قد بنى مدنية زاهرة وله القدرة على استعادة ذلك ،

١ - د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان ، ص ١٣٢ .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ٤١ .

٣ - ألبرت حوراني ، الفكر العربي ، في عصر النهضة ، ص ١٤٥ .

٤ - مقدمات الفكر السياسي ، (مرجع سابق) ص ٤٣ .

٥ - المرجع نفسه .

فالإسلام لم يكن دين آخره وحسب بل هو كذلك دين الدنيا وصلاح الناس وتقدمهم ، لكنه يميز في الموروث الديني الجوهرى المبدئى الثابت الذى لا يتغير ، وبين ما هو غير جوهرى غير ثابت وقابل لأن يتغير ، بل يجب أن يتغير ويتبدل ليتلائم مع حاضر الناس وواقع مطالبهم وحاجاتهم ، ولذلك فهناك امكانية فعلية للتوفيق بين الإسلام والعصر ، فالإسلام يحث على الأخذ بالنظر والعقل ، والأخذ بالعقل يوجب قبول ما يقدمه العلم الوضعي ومواقفته ثم الإسهام فيه» (١)

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد ابتعد في الفترة الأخيرة من حياته عن التوجيه السياسى مؤثراً تركيز نشاطه الخاص فى الجانب العملى والدينى (٢) ، إلا أن أفكاره وأفكار أستاذه الأفغانى استمرت فى توجيه فكر (شكيب أرسلان) ، ولذلك رأى المستشرق الأسبانى المسلم (خيل بن أمية) شكيباً محاولة فى السياسة على هدى إنجازات محمد عبده فى الإصلاح الدينى .

« ... كان الأمير يريد أن يعمل فى السياسة ماعمله الشيخ محمد عبده فى الدين ، وليس من سبيل إلى نكران ما استطاع تحقيقه فى هذا السبيل » (٣)

كما أشار إلى ذلك «ألبرت حوراني» بقوله : «أما شكيب أرسلان ، فمع أنه لم يتخل قط عن الاهتمام بالإصلاح الدينى فقد جذبه السياسات القومية العربية ..» (٤)

والباحث فى فكر الأمير شكيب أرسلان السياسى يجد جذوره ومقدماته فى أحوال عصره وأيام سيرته ، ولأن الأمير شكيب أرسلان عاصر حقبة استثنائية فى تاريخ الأمة الإسلامية والعربية - نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - شهد خلالها وقائع خطيرة متشابكة ومتعارضة ورأى بعينيه خلافة تتلاشى ودولة تنهار كما شهد ارتفاع الطابع التوسعى الغربى حتى بلغ ذروته فى مطلع القرن العشرين ، لذلك كانت

١ - المرجع نفسه ص ٤٤ .

٢ - د . محمد البهي ، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ص ٩٨ .

٣ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٣٢٤ .

٤ - ألبرت حوراني ، الفكر العربى فى عصر النهضة ، ص ٢٧٠ .

سياسته متنوعة في أشكالها وصيغها ولكنها ظلت ثابتة و متمسكة بالمبادئ والأهداف المخلصة لعقيدته وأمته .

إن الإسلام - كما فهمه شكيب أرسلان - ليس دين تعبد فحسب ، وإنما هو رسالة من الله جاءت لخدمة الإنسانية وتقديساً لها ، وبرغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم ، لذلك كان الإسلام تقيضاً للإستعمار وأداة عمل ضده بقصد خير الإنسانية ولكي يستعيد المسلمون مكانتهم في قيادة الإنسانية إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة .

لهذا كانت سياسة شكيب أرسلان (إنسانية) في مواجهة السياسة الغربية المناهضة للإسلام والمسلمين ، وبهذا وصف شكيب نفسه سياسته فقال : «إن سياستي في الحقيقة مبنية على الإنسانية لاغير ، وعندى أن الإنسانية هي رأس السياسة ، وأن الذي يأخذ بسياستها لايعثر .. هذا هو مشربي الحقيقي ، ويرانى الناس مزيداً للدين لأنني أرى الدين ركناً للإنسانية ، ولست أعتقد مجئ الأديان إلا خدمة للإنسانية وتقديساً لها ، وإلا فإن الله غني عن العالمين» (١) .

والدين الإسلامي في رأي شكيب أرسلان مرتبط بالسياسة فهو عامل توحيد للمسلمين في رد غائلة العدوان والإستعمار يشد أزهرهم ويجمع شملهم ومنحهم قوة أعظم ، يقول الأمير شكيب :

«فأما من جهة المسلمين فإن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس ، فهي الجامعة الدينية ، ولولاها لكانت هذه السلطنة قد تفككت منذ قرون» (٢)

ويرى شكيب أن الإسلام قادر على الإسهام في نهوض الشعوب الإسلامية علماً

١ - أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان ، داعية العروة والإسلام ، ص ١٥٠ .

٢ - مختارات من الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٩ .

وثقافةً واجتماعاً ، واللحاق بركب العصر ، وهو أمر تحقق له في أيام المسلمين الذهبية ، وكانت أسباب الارتقاء عائدة إلى تمسك المسلمين بدينهم وأسباب التردّي والضعف تعود إلى محيدهم عن جادة القرآن القويمة .

كما رأى شكيب أن المسلمين يحتاجون في بناء نهضتهم الحضارية الحديثة أن يعودوا إلى تراثهم لاستلھام ذاتهم التاريخية الخاصة التي تميز هويتهم وتبعث الثقة في أنفسهم وتعينهم في سعيهم الجاد نحو الحرية والعدل .

تلك هي الأسس والمبادئ التي بنى عليها شكيب أرسلان فكره الإصلاح في المجال السياسي ، ولكن لم تكن أفكار شكيب السياسية مجرد طموحات نظرية «يوتوبيا» بل لقد حرص على أن يجعلها معياراً لتعامله مع الواقع السياسي الذي ساهم بجهده وآرائه ومواقفه في معالجة أحداثه .

«لم يكن شكيب أرسلان ، لحظة واحدة ، في هامش ما يجري ويتحول ، كان موقعه الاجتماعي يمنحه قوة واضحة في كل المسؤوليات الرسمية التي تقلدها ، إلا أنه كان أكثر نفوذاً وقوة وهو خارج المركز والمسؤولية الرسمية» (١)

ونماذج حرص الأمير شكيب على ربط منهجه الإصلاح السياسي بالواقع العملي كثيرة منها إصراره الدائب على ربط الوحدة الإسلامية بمضمون نضالي يقوم على الجهاد ومقاتلة الغزوة الأوروبية ، بل لقد شارك الأمير شكيب بنفسه في مقاتلة الإيطاليين إلى جانب المجاهدين بليبيا ، كما سارع إلى الإصلاح بين ملك السعودية وإمام اليمن حتى يمنع التدخل الأجنبي ، وكان عضواً في الوفد السوري الفلسطيني المطالب بالحرية ورد الحقوق أمام الدول الغربية ، وكان يقول :

«إن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد إتحاداً دفاعياً تاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، يستطيع بذلك الازدياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفتاء المقبل» (٢)

١ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٤٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

ونحن لا نهدف من دراستنا تتبع الجانب العملي في سياسة الأمير شكيب أرسلان مع عظيم تقديرنا لجهاده وجهوده ، ولكننا أردنا أن نبحث في فكره النظري السياسي الإصلاحي الساعي إلى إعادة بناء الكيان السياسي للدولة الإسلامية في العصر الحديث على أصول شرعية صحيحة وبيان اجتهادات الأمير شكيب في مواجهة (واقع الأمة) المتمثل في الفراغ السياسي الذي أحدثه إلغاء الخلافة العثمانية ، ومواجهة الهجمة الغربية السياسية والحضارية والفكرية والتي تهدد الأمة الإسلامية بالفناء أو فقدان الهوية .

ولقد تناول البحث (الفكر السياسي عند الأمير شكيب أرسلان) من جانبين :

الجانب الأول : « تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية »

ويبحث في مسألتين : المسألة الأولى :

استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك)

ويهدف إلى إظهار رؤية شكيب أرسلان لتفرد النظام الإسلامي ، وتفوقه على كل الأنظمة السياسية التي قامت عليها الدول عبر العصور .

والمسألة الثانية :

تبين الأصول والمبادئ العامة التي تميز الدولة الإسلامية في رأي شكيب وقدرتها على تحقيق مصالح الناس ، وبلوغ الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة (العدل) في الأرض ، وقد تجلّى هذا الهدف من خلال إبرازه لمبادئ الإسلام العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية وهي :

١ - الشورى .

٢ - المساواة .

٣ - التسامح أو معاملة أهل البذمة ونشر الإسلام .

أما الجانب الثاني : « الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير

شكيب أرسلان»

فبيحث تدرج فكر شكيب أرسلان السياسي في تعامله مع الواقع السياسي للأمة الإسلامية ، ومحاولاته الجمع بين (المثل الأعلى) المتمثل في إقامة الخلافة وبين واقع المسلمين وصراعاتهم من أجل الحفاظ على كياناتهم السياسية في مواجهة حملات التغريب والتفتيت والشعبوية.

ولقد تدرج فكر شكيب أرسلان وموقفه السياسي على مرحلتين :

المرحلة الأولى : والتي امتدت إلى نهاية الحرب الأولى أو بعدها بقليل ، وتميز مضمون فكره خلالها بالتمسك بالجامعة الإسلامية وكانت تمثلها في هذه المرحلة (الخلافة العثمانية) حقيقة قائمة .

والمرحلة الثانية : وهي مرحلة ما بعد الحرب الأولى ، منذ مطلع العشرينات وإلى أيامه الأخيرة ، وتميز فكره خلالها في محاولات ملء الفراغ السياسي الذي أحدثته إلغاء الخلافة العثمانية ، وما ترتب عليه من فتح الباب على مصراعيه للإتجاهات الفكرية والمذهبية والعرقية من كل شكل وعلى كل لون .

ولقد عرضنا مراحل هذا التدرج من خلال دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) وفكرة (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، كما بينا منهجه لبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً من خلال عرض آرائه في (التربية) ، وبعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

تصور الأمير شكيب أرسلان للدولة الإسلامية :

- استقلال النظام الإسلامي (الفرق بين الخلافة والملك) .
- الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها نظم الدولة الإسلامية :
- ١ - الشورى .
- ٢ - المساواة .
- ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

إستقلال النظام الإسلامى (الفرق بين الخلافة والملك)

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الخلافة من بعده ثلاثون سنة فقال : " الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك [١] فهذا نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرق فيه بين مصطلح الخلافة التى هى : " نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فصاحب الشرع متصرف فى الأمرين : أما فى الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التى مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى " [٢] وبين الملك بما يحاط به من مزايا الترف وخصائص الأبهة .

ولقد اجتهد الأمير فى إظهار الفروق بين معنى كل من الإصطلاحين فقال : إن الإسلام فى أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه وإن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهى - شرط مشاورة أهل الحل والعقد - فهى لاتشبه الملك فى مزايا الترف وخصائص الأبهة التى يجيزها ملوك الأمم الأخرى [٣] .

وعلى هذا فليس كل من انتحل لقب الخلافة خليفة فقد أطلق لقب " خليفة " على ملوك عدول وآخرين مستبدين وعلى سلاطين منهم الصالح ومنهم الطالح ومنهم القوي ومنهم الضعيف وليسوا بخلفاء . ولذلك ذهب جماعة من أئمة السلف منهم أحمد بن حنبل رحمه الله إلى كراهة إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن على رضى الله عنهما ، واحتجوا بما رواه أبوداود والترمذى عن حديث سفينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك " [٤] .

ويروى الطبرى خبراً عن عبد الله بن مسعدة يبين أن معاوية بن أبى سفيان قد أدرك الفرق بين الخلافة والملك ، قال :

[١] رواه الامام أحمد فى مسنده ، وصححه ابن حبان

[٢] ابن خلدون ج ١ ص ٣٨٦

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ملحق الجزء الأول ص ٢٤

[٤] القلقشندى ، مآثر الأناقة فى معالم الخلافة ج ١ ص ١٢

" انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله فنزل منزلاً بالشام فبسط له على ظهر اجار (سطح) مشرف على الطريق ، فأذن لى ففعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجوارى والخيول فقال : "يا بن مسعدة رحم الله أبا بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصاب منه وأما نحن فتمرغنا فيها . ثم كأنه ندم فقال : والله إنه لملك ساقه الله إلينا" [١].

فبالخلافة إن نمط فريد من أنماط أنظمة الحكم تختلف عن الملك أو السلطنة ، أو كما يصفها الأمير شكيب : " الخلافة في الإسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وإنما هي رعاية عامة للأمة لإقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف في الداخل ، وصيانة الإسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهي لا تتعد إلا بإرادة الأمة . والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها إلا منها" [٢].

والأمير يدعو من أراد أن يتعرف على النظام الحقيقي للخلافة في الشرع الإسلامي أن يتأمل ماكان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، فهو أشد صور الحكم الإسلامي إنطباقاً على الشرع [٣] ، وسيرة الخلفاء الراشدين هي المرأة الحقيقية لروح الإسلام [٤] .

والأمير بذلك ينطق بما جاء في الحديث الشريف ، وعندما يقول " إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا خشية الفتنة في الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٥] .

وإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فعليّه أن يدرس سيرة الخلفاء الراشدين التي تستخلص منها الأحكام الشرعية التي تميز نظام الخلافة والمبادئ التي يقوم عليها فتميزه كنظام مستقل سابق لأنظمة العصر.

[١] الطبري ، ج ٥ / ٣٣٤

[٢] حاضر العالم ، ج ١ ص ٢٤٠ .

[٣] نفسه ج ١ ص ٢٤٠

[٤] نفسه ج ١ ص ٢٤١

[٥] المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠

ومن تلك المبادئ التي يقوم عليها نظام الخلافة في الإسلام مبدأ كون السلطة القومية من الأمة وهو مبدأ سبق به الإسلام أنظمة العصر، وليس كما يزعم الكثير من الأوربيين ومن تابعهم من المسلمين الجاهلين بتاريخ الشرائع : إن هذا المذهب من الأوضاع الغربية الأوروبية ، فقد عده الإسلام في هذا الموضوع واضحة ، وحكم الخلفاء الراشدين " كان أمراً شعبياً محضاً وديمقراطياً بحثاً وأبعد شئ عن السلطان المطلق ، والقرآن صريح في قوله تعالى : " وشاورهم في الأمر " وقوله " وأمرهم شورى بينهم " [١] .

والمبدأ الثاني أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الأوربيين - في البابا - ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة ، وكان إذا أخطأ يقيد من نفسه [٢] . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة - كما يفعل الملوك - بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعاتها [٣] .

أما المبدأ الثالث - وهو بديهي - أن نظام الحكم كان يقوم على ما أنزل الله سبحانه حسب منهاج النبوة ، لافرق بين الخليفة وأهل الحل والعقد وسائر أفراد الرعية في وجوب الإمتثال لشرع الله ، وهو معيار الإستقامة التي تحدث عنها أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما بويع للخلافة فقال : إنما أنا بشر ولست بخير منكم فراعوني فإن رأيتموني استقيمت فاتبعوني وإن رأيتموني زغت فقوموني " [٤] .

هذه هي المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الخلافة ، ولكن ما الفرق بين الخليفة والملك ؟ ولربما التبس الأمر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خشية الوقوع في الملك والانحراف عن الخلافة كما نقل الأمير عن الطبقات الكبرى لابن سعد : أن عمر سأل سلمان قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعير عمر " ثم قال أخبرنا محمد بن عمر قال عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى خليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر " [٥] .

فمن طبائع الملك التى تفرق بينه وبين الخليفة حرصه على الدنيا وترك العدل ، والاستبداد ، على أن عمر رضى الله عنه ، كان يعلم بعض طبائع الملك غير الذى ذكر أصحابه . وذلك أنه لما قدم الشام ولقى معاوية بن أبى سفيان واليه عليها ، فى أبهة الملك وزيه استنكر هذا الترف وقال : " اكسروية يا معاوية ! " فقال : " يا أمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباحاته بزينة الحرب والجهاد حاجة " فسكت عمر [١] . وكان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً واشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول اللهم اشهد [٢] .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن ليشق على عماله بالتضييق عليهم ، ولكنه أراد أن يضبطهم فلا يغدون طبقة متميزة فى الأمة يتمتعون بمراكب خاصة وملابس خاصة يحتجبون فى دواوين الدولة عن الناس ، وهذا هو فهم عمر للنظام الخلافى الذى كان يأخذ به نفسه ، فليست الخلافة مجرد نظام سياسى إدارى أو منهج حكم بل إتجاه سلوكى وخلقى بل إجتماعى أيضاً . وعليه فإن من صائص الخلافة الراشدة إلترام المجتمع الإسلامى بمجموعة الأخلاق الإجتماعية التى حددتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك الخلفاء الراشدين والصحابة الأولين [٣] . والأمير شبيب يرى فى سيرة عمر مثلاً بارزاً يأخذ منه القارى صورة حقيقية عن كيفية الإسلام فى زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الإمارة التى أمرهم بها الشارع صلى الله عليه وسلم ، وفى سيرته رضى الله عنه تبرئة للشريعة الإسلامية مما أصاب المسلمين بعد عهد الراشدين من فرقة وضعف ، لأن حقيقة الإسلام كما تظهر من سيرة الراشدين كانت معيار الفلاح والفشل للمسلمين ، " فكانوا كلما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)" [٤] . وفى تعليقات الأمير على (حاضر العالم الإسلامى) يعلق على قول (لوثروب ستودارد) الأمريكى : " إن العرب ما إنفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم

[١] مقدمة ابن خلدون ط ٣ ص ٣٦٠

[٢] ابن الجوزى ، سيرة عمر ص ٨٥

[٣] الخلافة بين التنظيم والتطبيق ، محمود المرداوى ص ٢٨

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٥٨

المغتصبين للخلافة إغتصاباً" [١] .

يقول شكيب : "إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا فى الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضواً قد يولد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم" [٢] .

وبناءً على هذا فقد فرق الأمير شكيب بين أنظمة الحكم الثلاثة الملكى الإستبدادى أو الطبيعى كما يسميه ابن خلدون ، والملكى السياسى والخلافة التى وازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين ، وهذا الفهم نجده عند ابن خلدون ويبرز فى قوله : "لقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة ، وأن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المدار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى إعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به" [٣] . وهذا النظام لم يتحقق إلا فى عهد الخلفاء الأربعة الذين خلفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ما ذهب إليه الأمير ما سبق وأشرنا إليه عن الثلاثين سنة التى أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنها سنى الخلافة فى قوله "الخلافة ثلاثون سنة ثم يكون بعد ذلك الملك" [٤] وقول العلماء : لم يكن فى الثلاثين سنة بعده صلى الله عليه وسلم إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن [٥] .

ويقال الأمير شكيب بين نظام الخلافة وبين النظام الدستورى الذى تحتكم فيه العامة الى قوانين سياسية فينقاد الجميع الى أحكامهما فيقول : "إن الخليفة ليس معصوماً عند اهل السنة ، و أنه لا يمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليس له ان يستبد بالأمر" ثم يقول الأمير : "ولعل قبائلاً يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضاً مقيدون بالدساتير التى وضعتها الأمم التى يلون امرها وليس لهم أن يستبدوا فى شئ ! وهذا لاجدال

[١] ستودارد ، حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٩٠

[٢] شكيب أرسلان ، تعليقاته على حاضر العالم الإسلامى ، هامش ص ٢٩٠ ج ١

[٣] مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٣٧

[٤] رواه أحمد وأخرجه بن حبان

[٥] جلال الدين السيوطى تاريخ الخلفاء ، ط ١ ص ٩٠

فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم وبين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين في أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء في الإسلام هم مسؤولون كسائر الرعية .

ويبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والتقص في معيشتهم ما لم يكن احد قبلهم ولا بعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضروري والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرايات الوفرة ويعيشون فيترف عظيم لاينازع فيه أحد" [١] .

ويقر الأمير بأن الخلفاء الراشدين لم يقع إنتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ، ولكنه يؤكد أنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الأوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة [٢] .

ويرى الأمير أن من أكبر الفروق التي تميز الخلافة عن الملك أن الخلفاء الراشدين لم يخطر ببال أحدهم أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعاتها .

وملوك هذا العصر ينتقل الملك منهم إلى أولادهم فأحفادهم ، بينما كان الخلفاء الراشدون يعهدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم . "فروح الاسلام الحقيقي هي مراعاة للكفاية والأهلية دون أى اعتبار آخر " [٣] .

وبعد .. فإن دارس الشرع الإسلامى يحق له أن يتساءل كيف انقلبت الخلافة ملكاً في الإسلام ؟ وكيف رضيت الأمة أن تتقاد لنظام سياسى مخالف لما كان عليه سلفها الصالح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؟

ويجيب الأمير شكيب فيقول : " ما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، إلاخشية الفتنة فى الداخل والإعتداء على الحوزة من الخارج " [٤] .

[١] تعليقات الأمير على مقدمة ابن خلدون ج١ ص ٢٦

[٢] تعليقات الأمير على حاضر العالم الإسلامى ج١ ص ٢٤١

[٣] تعليقات الأمير على ابن خلدون ج١ ص ٢٦

[٤] تعليقات الأمير على حاضر العالم الاسلامى ج١ ص ٢٩٠

والحق أن خوف الفتنة ، وتغير أحوال المسلمين عن أحوال أسلافهم إبان عهد النبوة ، سببان أساسيان في إنقلاب الخلافة إلى الملك ثم إستقرار الملك ورضا المسلمين به .

يقول ابن خلدون في بيان ذلك ما نصه " فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى ملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين . وكانوا يؤثرونه على كل أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة ، فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة للفرقة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه . " وهذا يبين أن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه أثر أن يصل إليه الثائرون فيقتلوه على أن يقوم رهط من أنصاره بقتالهم فتقع الفتنة بين عامة المسلمين دون أن يجتهد في دفعها عنهم وهو راجعهم ومسئول أمام الله عما استرجاه [١] .

ويروى ابن خلدون رواية أخرى عن علي رضى الله عنه تبين تمسكه بمنهج الخلافة وتركه لأساليب الملك . وإن كان بها مصلحته يقول ابن خلدون : وهذا على أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستيقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته ، وتتفق الكلمة ، وله بعد ذلك ماشاء من أمره ، وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرارا من الغش الذي ينافيه الاسلام . وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال : لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظرى فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة ، وأن الحق فيما رأيته أنت ، فقال على : لا والله ، بل أعلم أنك نصحتنى بالأمس ، وغششتنى اليوم . ولكن منعنى مما أشرت به ذائد الحق . وهكذا كانت حالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم " [٢] . فعلى كرم الله وجهه أبى نصيحة المغيرة لأن العمل بها ، وإن كان في مصلحته ، من سمات الملك وليس من سمات الخلافة التي اجتهد أن يتمسك بها وينهج نهج أسلافه في التمسك بنظام خلافة النبوة .

ولكن هل كان العصر ملائماً لاستمرار الخلافة على نهج النبوة ؟ . " لقد كان على رضى الله عنه يدرك إختلاف المحيط وأنه جاء في عصر أهله أهل دنيا وملك ، فسأله سائل ؟ ما بال الناس اختلفوا عليك وقد أجمعوا على أبى بكر وعمر ؟ فقال : لقد كان أبو بكر

وعمر خلفاء على أمثالي وكنت خليفة على مثلك " [١] .

وعلى قاعدة كما تكونوا يول عليكم " صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً . وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك ، والصدد الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده . ثم ذهب معاني الخلافة ولم يبق إلا إسمها ، وصار الأمر ملكاً بحتاً " [٢] .

ولقد ذهب العقاد إلى القول بأن " الصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما لم يكن صراعاً بين رجلين وإنما كان صراعاً بين إتجاهين أو نظامين ، النظام الخلقي والنظام الملكي . فالأول : ذهب أهله وانقضى زمانه ، والثاني : استمحلته الناس واستحسنوه فهو أيسر لأهوائهم وأنعم لندياهم " [٣] .

قال ابن خلدون : " ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم منها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم ببغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لإستشعار حق كما يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد وإنما اختلف جهادهم في الحق وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه " [٤] .

وبعد حسم الصراع وانتقال أمر العرب والمسلمين لبني أمية ، اقتضى الأمر وفق موازين القوة الاجتماعية وخوف الفرقة أو ما يسميه ابن خلدون (العصبية) أن تتحول الخلافة إلى ملكاً وراثياً . قال ابن خلدون : " ثم اقتضت طبيعة الملك الإنفراد بالمجد ، واستثنى الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ، ومن لم يكن على طريقة معاوية في إقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الإنفراد بالأمر لوقع في إفتراق الكلمة التي كان جمعها وتآليفها أهم عليه من أمر ليس ورائه كبير مخالفة " [٥] .

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق ، محمود المرداوي ، ص ٣١ - ٣٢

[٢] مقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١ ، ص ٣٦٩

[٣] عباس العقاد ، عبقرية الإمام علي ، ص ٤٣ عن الخلافة بين التنظيم والتطبيق ص ٣٢

[٤] ، [٥] مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٤ ، ج ١

ويزعم ابن خلدون أن الذي دعا معاوية إلى إثارة ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة العامة في اجتماع الناس وإتفاق أهوانهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ... فعدل معاوية عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الإتفاق واجتماع الأهواء والذي شأنه أهم عند الشارع .

وحرصاً على جمع كلمة المسلمين والخوف من إفتراق الكلمة إمتنعت عودة الخلافة الصحيحة فيما بعد ، فقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر : " لو كان لي من الأمر شيء لوليت الخلافة " . ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ، ولكنه كان يخشى من بني أمية ، أهل الحل والعقد ، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم ، لئلا تقع الفتنة [١] .

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٢٥

الأصول والمبادئ العامة التي تقوم عليها

نظم الدولة الإسلامية

- ١ - الشورى .
- ٢ - المساواة .
- ٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام .

١ - الشورى

يرى الأمير شكيب أن السلطان الذى يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها إلا منها [١] ، لذلك فإن أمر الشورى فرض أوجبه الله [٢] فى كتابه قال تعالى : " وشاورهم فى الأمر " . وقال : " وأمرهم شورى بينهم " . وكان النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يعملون كل شىء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى احدى خطبه : " ولكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد التناظر " [٣] .

وينقل الأمير عن ابن قيم الجوزية فى (أعلام الموقعين) قوله : كانت النازلة إذا نزلت بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليس فيها عنده نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جعلها شورى بينهم [٤] وعن شريح القاضى قال : قال لي عمر بن الخطاب : " اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم تعلم كل اقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين فإن لم تعلم كل ما قضيت به أئمة المهتدين فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح " . وكتب عمر إلى شريح : " إذا حضرك أمر لا بد منه فانظر ما فى كتاب الله فاقض به فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل فإن لم يكن فأنت بالخيار . فإن شئت أن تجيب رأيك فاجتهد رأيك وإن شئت أن تؤامرنى ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيراً لك " [٥] .

ومن كتاب لعمر إلى أبى موسى الأشعرى : " ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ثم قاييس الأمور واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق " [٦] .

والأمير شكيب يكثر من الاستشهاد بالأخبار والآثار الواردة فى أمر الشورى عن الخلفاء الراشدين لأنه يرى أن من أراد أن يعلم قاعدة الإسلام فى هذا الموضوع فعليه أن يتأمل ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، فهو أشد صور الحكم الإسلامى إنطباقاً على الشرع " [٨] . " فإذا أراد الإنسان أن يعرف ثمار شجرة الإسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين فإنها المرأة الحقيقية لروح الإسلام " [٩] .

ومن تأمل النصوص التى يستدل بها الأمير على وجوب الشورى فى الإسلام نجد أن مهام الشورى تقتصر على جانب واحد من جوانب الفقه والشريعة هو الاجتهاد والرأى ولا مجال لها مطلقاً فيما ورد فيه نص ، وقديماً رسخ الأصوليون هذه القاعدة فقالوا : " لا اجتهاد فى مورد النص " [١] . وليس أدل على هذا مما ذكره الأمير من الحديث " لما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل والياعلى اليمن قال لمعاذ : كيف تصنع أن عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بما فى كتاب الله : قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن بسنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأى ولا آلو . ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله " [٢] ، فالشريعة قد جعلت باب الاجتهاد مفتوحاً لكل من كان حقيقاً به ، وجعلت المصلحة والضرورة وسد الذريعة من الأصول الكلية التى يرجع إليها [٣] ، وأوجبت على الإمام المشاورة فى كل ما لا نص فيه عن الله ورسوله ، ولا إجماعاً صحيحاً يحتج به ، وأما فيه نص اجتهدى غير قطعى ، ولا سيما أمور السياسة والحرب المبنية على أساس المصلحة العامة ، وكذا طرق تنفيذ النصوص فى هذه الأمور إذ هى تختلف باختلاف المكان والزمان فهو ليس حاكماً مطلقاً كما يتوهم الكثيرون بل مقيد بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العامة وبالمشاورة [٤] . والأمير يستشهد بقول الله تعالى : " وشاورهم فى الأمر " وقوله فى وصف المؤمنين : " وأمرهم شورى بينهم " ، ولو لم يرد فى أمر الشورى الاهاتين الآيتين لكفى بهما دليلاً على وجوب الشورى فى الإسلام ، فالأيه الأولى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهى جزء من قوله تعالى : " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر " [٥] . وقد ذهب بعض السلف الى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان غنياً عن المشاورة فلولا إرادة جعلها قاعدة شرعية لما أمر الله بها " روى عن الحسن البصرى فى تفسيره قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) أنه قال :

[١] الخلافة بين التنظيم والتطبيق لمحمود المواردى، ص ٢٢٢

[٢] ، [٣] شكيب أرسلان، حاضرم العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ٣٥٠

[٤] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٣٨

[٥] آل عمران ، آية ١٥٩ " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لاتفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "

" قد علم الله أنه مابه إليهم من حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده " [١] .
 فالمشاورة في حقه صلى الله عليه وسلم مندوبة لطيب القلوب ، ومنهم من ذهب إلى
 وجوبها لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مستغنياً عن غيره من الناس إلا فيما ينزل
 عليه فيه الوحي وقال " أنتم أعلم بأمور دنياكم " [٢] (رواه مسلم) . " ولذلك كانوا إذا
 راجعوه في أمر أمر به ورأوا المصلحة في غيره سألوه أقاله أو فعله بوحى من الله أم من
 رأيه ؟ فإذا كان من رأيه ذكروا رأيهم وقد يعمل به ويرجحه على رأيه كما فعل في يوم بدر
 فقد جاء صلى الله عليه وسلم أدنى ماء فنزل عنده فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله
 أرايت هذا المنزل أم نزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي
 والحرب والمكيدة ؟ ، قال " بل هو الرأي والحرب والمكيدة " فقال يا رسول الله ليس هذا
 بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه .. إلخ ، فقال
 صلى الله عليه وسلم " لقد أشرت بالرأي " وعمل برأيه [٣] . وسواء أكان الأمر في حقه
 صلى الله عليه وسلم على سبيل الذنب أو الجواب ، إلا أنه في حق المؤمنين واجباً بالإجماع
 لأن الله سبحانه وتعالى وصف به المؤمنين فقال : " وأمرهم شورى بينهم " فذكر سبحانه من
 صفات المؤمنين التشاور فلا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بأرائهم في مثل
 الحروب وما جرى مجراها [٤] . والآثار الواردة عن الراشدين في المشاورة كثيرة منها ما
 ذكره الأمير شبيب عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ورواه الدرامي والبيهقي عن
 ميمون بن مهران أن أبا بكر كان يسأل عامة المسلمين عما لا يجد فيه نصاً من الكتاب ولا
 سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يعلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً قريباً
 قام إليه الرهط فقالوا نعم قضى فيه بكذا فيأخذ به ويحمد الله تعالى (قال) وإن أعياه ذلك دعا
 رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به ، وإن عمر بن
 الخطاب كان يفعل ذلك ، وزاد أنه كان بعد النظر في الكتاب والسنة ينظر فيما قضى به أبو
 بكر أيضاً لأنه كان لا يقضي إلا بنص أو مشاورة [٥] .

[١] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٣٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٨

[٤] ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ص ١١٨ مج ٤

[٥] رشيد رضا ، الخلافة ، ص ٤٠

ومنه ما رواه علي كرم الله وجهه قال : قلت يارسول الله إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهى فما تأمرنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " شاوروا فيه الفقهاء والعابدين ولا تمضوا فيه رأي خاصة " [١] .

ومن تأمل هذه الآثار نلاحظ الفرق بين سؤال عامة المسلمين عن الرواية وإختصاص الرؤساء والعلماء بالمشاورة ، ذلك بأنهم هم جماعة أولي الأمر وأهل الحل والعقد الذين أمر الكتاب بطاعتهم بعد طاعة الله ورسوله وقال في إحالة الأمر إليهم (ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . والحق أن الدولة الإسلامية قامت مع نظام صحيح أو قام النظام معها ، والأصل في الشورى أنها دعامة من دعائم الدولة وواجب من واجبات الحكومة الإسلامية كما يتجلى ذلك في نظام الحكم على عهد الراشدين ولا عبرة بالمنحرفين عن هذا الأصل ؛ وهذا ما يؤكدده الأمير شكيب بقوله : " إن جميع الحكومات الإسلامية هي شورية ديمقراطية فطرة وخلقة والإستبداد فيها عارض ومن جملتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة " [٢] .

٢- المساواة

إن الدين لا يكون إلهياً سماوياً مرشحاً لأن تأخذ به الأمم المختلفة ، أحمرها وأسودها وادناها وأبعدها ، إلا إذا كان مؤسساً على هذه القاعدة المقدسة ، قاعدة المساواة [٣] .

وشريعة الإسلام حرصت على قيام الدولة الإسلامية بتحقيق العدالة بأوسع معانيها وفي شتى مجالاتها السياسية والإدارية والقضائية والاجتماعية والدولية ويتضمن ذلك حماية الحقوق والحريات العامة والمساواة في صورها المتعددة ، كما تقوم ممارسة الحكم على الشورى . ويرتبط تحقيق المساواة في الإسلام بمفهوم (الأمة) ، فالأمة في الإسلام تقوم على أساس عقيدى فكرى لا على أساس عرقى ، كما يقوم مفهوم (الدولة) على نفس الأساس ، لا على أساس أرضى جغرافى أو تاريخى " كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله - آل عمران ١١٠ "

[١] رواه الطبراني في معجمه الرسيط وصححه السيوطي في مفتاح الجنة (محمد عوامة ، أثر الحديث الشريف في إختلاف الأئمة ، ص ١٠٢)

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٧٠

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ١٥٨

"وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا - البقرة ١٤٣". وقد ورد ما يشير بإقامة كيان سياسى نظامى لأمة الإسلام فى القرآن والسنة ، عبر عن المسئول عنه بـ (الإمام) و(ولى الأمر) [١] .

ومن هنا قامت أمة الإسلام ودولته على أساس انسانى عالمى ، يقول الأمير شكيب : "وترى صورة الإسلام كلها فى هذه الآية "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" يقول تعالى: إنه خلق البشر كلهم من أب وأم وماجعلهم شعوباً وقبائل لتمييز بعضهم على بعض ، كلا ، بل ليعرف كل من أى قبيل هو ، أما المزية فهى للتقوى فقط . وبهذه الآية انتشر الإسلام ، وفتح العرب تحت ظل رايته الديموقراطية الحقيقية نصف المعمور ، ودخلت الأمم فى الإسلام ، ولا تزال تدخل فيه إلى يومنا هذا" [٢] .

ويبين الأمير رفض الإسلام لأمتة ودولته أن يغلقا على عصبية ضيقة فيستشهد بالأحاديث النبوية التى جاءت مؤيدة للآية الكريمة (فمنها "ليس منا من دعا إلى عصبية") ومنها: "ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى إلا بالتقوى: ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: لفاطمة ابنته : "اعملى يا فاطمة فلن أغنى عنك شيئا يوم القيامة". أو كما قال . وهذا فى معنى قوله تعالى : "لا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" [٣] ثم يقول الأمير : " وهناك حديث شريف أطلعنا على أسانده حضرة الامام الكبير بقية السلف الصالح الشيخ بدر الدين الحسينى المغربى نزيل دمشق وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " ألا إن بعض أهل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك إنما أوليائى المنقون من كانوا وحيث كانوا . ألا إني لا أحل لأهل بيتى أن يفسدوا ما أصلحت" أو كما قال [٤].

والأمير يرى أن الإسلام يفتح الباب أمام أى مسلم ليستعرب ، فمن تعلم لغة القرآن فهو عربى ، فإنما العربية لسان ، وليست عرقا ودما ومن تعلم القرآن فقد درب على اللسان العربى الممين ، بل يستطيع كل مسلم أن يصل بتقواه إلى الانتساب إلى أكرم البيوت العربية ، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "سلمان منا آل البيت" وذلك أنه عد سلمان الفارسى نظرا لتقواه من آل البيت النبوى أكرم البيوت [٥] .

[١] د. محمد فتحى عثمان ، من اصول الفكر السياسى الإسلامى ص ٦٢

[٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] شكيب أرسلان - حاضر العالم ج ٤ ص ١٥٧

والأمير لاينفى المزية التاريخية للعرب فى عصر الرسالة النبوية ، "فالشرعية الاسلامية تعرف للعرب أمة الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصيات وفضائل ولكن هذا لا يخرجها قيد شعرة عن قاعدة التسوية العامة بين جميع الأمم" [١] .

فالعرب هم الذين نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بين ظهرائهم ، وهم الذين حفظوا رسالة الإسلام فيما بينهم وحملوها الى العالمين وجاهدوا فى سبيلها ، وتمثلوا هديها فى سلوكهم وأخلاقهم ، وحفظوا كتابها وسنة رسولها ، وأنفقوا مما رزقهم الله من عقل وقوة بدن وجهد وعزيمة ومال فى نصرة هذا الدين ، وقد كان الإسلام للعرب شرف الدهر وعز الأبد "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون - الأنبياء / ١٠" والمفروض أن يكون العرب فى كل عصر أقدر على فهم القرآن والسنة إذ يتكلمون لغتهما ومن ثم يكونون أقدر على ابلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، وهى مسئولية عظيمة وشرف كبير للعرب إذا قدروا ذلك حق قدره "وانه لذكر لك ، ولقومك وسوف تسألون - الزخرف ٤٤".

وعلى هذا فالأمير شكيب لا يرى فى الآيات والأحاديث والآثار التى أوردها "ما يتصادم مع شىء من الأحاديث الصحاح الواردة فى فضل العرب ، ووجوب حب العرب ، وكون كلام الله القديم جاء باللسان العربى المبين" [٢].

غير أن الأمير يعود فيقرر ورود أحاديث أخرى فى فضل غير العرب مثل "لو علق العلم بالثريا لنالته رجال من فارس" [٣].

وعلى أساس قاعدة المساواة المقدسة ظهر التضامن الإسلامى قوياً راسخاً ، وهو الذى حار فى أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهاذة المؤرخين الأوربيين ، وليس هذا الا نتيجة قوله تعالى : "إنما المؤمنون إخوة" [٤] .

ويرتبط بالبحث فى المساواة فى الشريعة الإسلامية المؤسسة على التزام دولة الإسلام بتحقيق العدالة فى داخل المجتمع الإسلامى أو الدولة الإسلامية بشمول هذه العدالة لتعامل الحكومة الإسلامية مع غير المسلمين فى داخل دولة الإسلام ، وفى العالم كله "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين - الممتحنة / ٨"

[١] شكيب أرسلان - حاضر العالم ج ٤ ص ١٥٧

[٢] ، [٣] ، [٤] شكيب أرسلان - حاضر العالم ج ٤ ص ١٥٨

٣ - معاملة أهل الذمة ونشر الإسلام :

وهذه صفحة جديدة من صفحات (العدالة) في الإسلام ، فعدالة الإسلام الشاملة تحكم تعاملها مع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية ، وفي العالم كله ، ولقد أفتى بعض العلماء المسلمين بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر ، لأن الأول لنا عدله وعليه كفره ، والثاني له إسلامه وعلينا جور ، وقالوا : إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر ولا يقيمها بالظلم ولو على إسلام^(١).

ولقد قرر (شكيب أرسلان) أن الديانة الإسلامية لم تأمر بسوء المعاملة من المسلم لغير المسلم ، وإذا كان بعض المنتسبين إلى الإسلام قد فعل هذا فليس فعله حجة على الإسلام ، بل هو تعصب قبيح غير مندوب ولا مستحب ، والشرعة لم تأمر بشيء من هذا^(٢).

ومعنى قوله تعالى : « وليجدوا فيكم غلظة »^(٣) هو أنه يجب قتال المشركين الأعداء بشدة ، ويجب الإغلاظ عليهم في الحرب ، وليس معناه احتقار غير المسلمين في المعاملات الشخصية ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعدي بن حاتم وهو نصراني وأجلسه على وسادته^(٤).

وشكيب قد أصاب كبِد الحقيقة فيما ذهب إليه ، فإن القرآن الكريم هو الذي يقول في سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم

١ - الاستاذ عبد الوهاب خلاف ، بحث في مؤتمر (الإسلام والإصلاح الاجتماعي) سنة ١٩٣٨م عن كتاب : (من أصول الفكر السياسي الإسلامي) للدكتور محمد فتحي عثمان ، ص ٦٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، الشورى ، ٧ يناير ١٩٢٥م (عن شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام) ص ٢١٢-٢١٣ .

٣ - سورة التوبة ، آية ١٢٣ ، والآية كاملة : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » .

٤ - المرجع السابق .

فأولئك هم الظالمون» (١)

ومن الأمثلة التي تدل على سماحة الإسلام وعدالته ما جاء في كتاب شكيب «تاريخ غزوات العرب» من أن اليهود كانوا مضطهدين في أسبانية ، «وكان رجال الدين الكاثوليكي يرهقونهم عسراً وبيالغون في إيذائهم .. فلما جاء المسلمون وفتحوا أسبانيا كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم ، فنشقوا نسيم الفرج» (٢)

فالإسلام لم يستعمل القوة ضد «الأديان» المخالفة للإسلام الواقعة تحت سلطانه ، ويدلل الأمير على ذلك في مقارنة بين التسامح والتعصب بين الإسلام وأوربة بما فعله الأتراك الذين «بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك أسبانية وفرنسا بالعرب» (٣)

إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية» (٤)

ويروي الأمير أن أحد السلاطين العثمانيين أحب إخراج الملايين من الأورام والبلغار والأرمن وغيرهم من الممالك العثمانية خوفاً من مغبة بقائهم «وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الإسلام ويقول : ليس لنا عليهم إلا الجزية» (٥)

وهذا يثبت أن الإسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم (٦) ، مما يثبت حرص الإسلام على تحقيق العدالة وتسامح الشريعة الإسلامية ومساوتها بين الناس أمام الشريعة.

١ - سورة الممتحنة ، آية : ٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، هامش ص ٣٢/٣١ .

٣/٤/٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٢٨ وما بعدها .

ويؤيد ما استشهد به الأمير ما روى عن الخليفة عمر بن العزيز أن قوما من سمرقند وفدوا عليهم « فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن أمر بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين على أن ينادوهم على سواء فكره أهل سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين »^(١).

وقد اتخذ بعض المستشرقين - أمثال « غودفروا دومومبين » صاحب « تاريخ العالم » من بقاء الملايين من غير العرب في ظل الدولة الإسلامية على عقائدهم ، وعدم تعرض المسلمين (للكتابيين) وإرغامهم على الدخول في الإسلام - نقول - اتخذوا من هذا مدخلا للطعن في عدالة الإسلام ، وردوا ذلك بزعمهم إلى النظرة العنصرية التي نظر بها العرب تجاه الأمم الأخرى ، يقول (دومومبين) : « أما الأعاجم .. فإن العرب لم يكونوا ينظرون إليهم كقوم مساويين لهم ، ولم يكن عليهم إلا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأما اشراكهم في شرف الملة الإسلامية ومنافع الإسلام في الدنيا والأخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لأنهم قوم منحطون عن درجة العرب ، وحسب الأعاجم حريتهم الدينية لأنهم أهل كتاب ، فأما المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة إنما هي بين المسلمين فقط »^(٢).

ويرد الأمير (شكيب أرسلان) هذا الإدعاء ويبين أن عدم استخدام (الحكومات الإسلامية) للقوة في حمل أهل الكتاب الواقعين تحت سلطانهم على الدخول في الإسلام هو مدعاة فخر للإسلام والمسلمين ولا يمكن أن يتخذ مدخلا للطعن في عدالة الإسلام ومساواته بين الناس ، يقول شكيب : « إن كلام (دومومبين) هنا لا يخلو من الخلط لا سيما عند ظنه أن العرب لم يكونوا مهتمين بإدخال العجم في الإسلام ، وإنما كان همهم الوحيد إسلام العرب ، نعم إنه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »^(١) لم يعترضوا أحداً من الكتابيين في دينه ،

١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١١ .

٢ - حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٨-١٦٩ .

وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الإسلامية لأنه لا يوجد أنزه ولا أشرف من الحكومات التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها إلى دينها ..» (٢).

فعدالة الإسلام في معاملة أهل الذمة والعهد من أتباع الديانات من رعايا الدولة الإسلامية حددها القرآن الكريم بما يكفل حريتهم الدينية ، وحقوقهم القانونية والقضائية ، ولكن هذا لا يمنع أصلاً هاماً من أصول الإسلام والذي ينبغي أن تقوم عليه الدولة الإسلامية ، وهو إلزام دولة الإسلام بنشر رسالته في العالم ، يقول الأمير : « فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لا سيما الأتقياء منهم تدور على منحور (نشر الإسلام) » (٣).

ولذلك ينبغي أن يكون سلوك (الدولة الإسلامية) على أرضها في الداخل وبين دول العالم في الخارج قائماً على الأمانة والعدالة وحسن المعاملة متجنباً كل ما يكون فيه إساءة للإسلام ومدعاة للصد عن سبيل الله ، ويستشهد الأمير شكيب بالوقائع التاريخية التي تبين حرص الخلفاء الأتقياء على نشر الإسلام ومنها موقف الخليفة (عمر بن عبد العزيز) رحمه الله « لما شكوا أحد العمال بمصر من نقص الجباية بسبب إقبال أهل الذمة على الدخول في الإسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز : ويحك أن محمداً جاء هادياً ولم يجيء جابياً .. » (٤).

١ - سورة البقرة ، آية : ٢٥٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٩ .

٣ - المرجع السابق نفسه .

٤ - المرجع السابق نفسه ص ١٧٠ ، وقد نقل شكيب لتأييد رأيه عدداً من الوقائع عن (عمر بن عبد العزيز) و (المأمون) و (المعتصم بالله) من كتاب فتوح البلدان للبلاذري .

الرؤية السياسية لمستقبل الأمة الإسلامية عند الأمير شكيب أرسلان

- تمهيد .
- الجامعة الإسلامية .
- الجامعة العربية .
- آراء الأمير شكيب أرسلان في « التربية » .
- بعث (المدنية الإسلامية) في مواجهة (الحضارة الغربية) .

- الرؤية السياسية لمستقبل (الأمة الإسلامية) عند الأمير (شكيب أرسلان) :

- تمهيد :

إن الفراغ السياسي الذي أحدثه ضعف (الدولة العثمانية) ثم إلغاء (الخلافة) في العالم الإسلامي دفع الأمير شكيب أرسلان لتقديم اجتهاده في علاج أزمة الخلافة الشاغرة بما يراه من نظام آخر بديل يحقق وحدة وفق روح العصر بصفة مؤقتة أو في صورة دائمة فرأيناه يدعو إلى (الجامعة الإسلامية) أو (الرابطة الشرقية) ثم إلى (الجامعة العربية) ، وأخذ يبصر المسلمين في الأفطار التي أنشأ الإستعمار مخالفه فيها وصادر حرياتهم وخيراتهم بسبب الجهاد لاستعادة عزتها والحكم بشريعتها ، ويضع أيديهم على ثغرات التخلف والتفرق التي نفذ منها الإستعمار إلى ديارهم وجثم على أنفاسهم ويدد البقية الباقية من حيوتهم ، ويبن أن سبيل الخلاص من واقع الأزمة يقوم على (تربية) وتنشئة أحداث المسلمين على أسس صحيحة ، وطالب بإحياء (المدنية الإسلامية) التي تبعث في قلوب المسلمين روح الاستقلال في مواجهة (الحضارة الغربية) .

ولقد حاول (شكيب أرسلان) أن يجمع بين المثل الأعلى والواقع ، ولقد تحقق المثل الأعلى الذي ينشده المسلمون في نطاق محدود من الزمان نطاق الخلفاء الراشدين الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الإسلامي إنطباقاً على الشرع ^(١) ، ولكن الراشدية ليست مجرد لقب لنظام الحكم الإسلامي في فترة محدودة من التاريخ كما أنها ليست مجرد التزام من الإمام المسلم بمنهج النبوة فحسب ، إنها إلتزام الأمة كلها بهذا المنهج الرباني ، لذلك تعددت أنماط الخلافة بتغيير الظروف وانحراف الأمة عن منهاج النبوة ، فعدم رشود الأمة وما يترتب عليه من تعذر وجود خليفة راشد لا يسقط مشروعية (الحكومة الإسلامية) ، بل لابد من قيامها أو الحد الأدنى منها وهو وجود حاكم مسلم واحد يقود الجماعة المسلمة كلها ويحكم بينها بما أنزل الله ، وقد عرفت الأمة نماذج

من نظام الحكم الإسلامي غير الخلافة (الراشدة) كما بين شكيب أرسلان هذا بقوله : «إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضواً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الفاشم ، وما انتقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج» (١).

وفي ظل الواقع الممكن يكون «للأمة الحق أن تجتهد في أشكال أخرى من أنظمة الحكم بحيث لا تخرج في حدها الأدنى عن الإطار الإسلامي أي أن تكون إسلامية متفردة غير متعددة ، وتنفذ حكم الله لا حكم الجاهلية» (٢).

وذلك لأن الإسلام كفيل بأن يقدم الإصلاح الدائم حسب الظروف القائمة والإمكانيات المتاحة ، والله تعالى يقول : «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» البقرة : ٢٨٦ ، «وما جعل عليكم في الدين من حرج» الحج : ٧٨ .

وقد يمكن في الغد ما لا يتحقق اليوم ، وقد نفذ (شكيب أرسلان) ببصره وبصيرته إلى حقيقة الإسلام وطبائع النفوس والمجتمعات ، فرأى أن شرائع الإسلام بمجملها ، وأحكام الإمامة جزء منها لا تصطدم مع الفطرة الإنسانية ، ولا تكلف الإنسان إماماً كان أو مأموماً إلا وسعه ، فلا يعقل أن نجد في تطبيق المنهج الإسلامي في الحكم أو في غيره عنتاً أولاً يمكن تطبيقه في أرض الواقع العملي ، مهما قدم العهد وتغير الزمان والإنسان إلا أن نجد هوى متبعاً ..

وقد تنبه الأمير شكيب أرسلان من خلال تجاربه السياسية أثناء تعامله مع الواقع أن الإسلام يمكنه أن يتعايش مع التقسيمات العرقية أو القبلية شريطة أن تستقيم له ولا تتعارض معه ، فالإسلام أقر التقسيم القبلي ونهى عن العصبية القبلية ، ولئن كانت (القومية) أوسع نطاقاً من القبلية فهي أولى ألا يعارضها الدين بل يمكنه أن يتعايش معها بشرط استقامتها له وعدم تعارضها معه .

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .

٢ - محمود الرادوي ، الإغلاطة بين النظر والتطبيق ، ص ٣٤٥ .

وبناء على ما تقدم رأى الأمير أن إحياء الخلافة ممكن إن أحب أناس أن يستجيبوا إلى ما يحييهم ، وذلك بتكوين رابطة تجمع بين أقطار العالم الإسلامي «ومن مجموع الأقطار القوة المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسها تطأطئ له الرؤوس» (١).

ولقد كان للأمير (شكيب أرسلان) نظرة مستقبلية في الأمور السياسية صادقة ومتميزة ، وتدعو إلى الإعجاب ، فطالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث «لا لأنه أوتى علم الغيب - فالغيب يعلمه الله - ولكن لأنه يحسن التدبر للأمور ، ويحسن التطلع إلى العواقب» (٢).

وقد شهد له معاصروه بصدق فراسته ، ودقة تقديره للأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، يقول الدكتور زكي علي في هذا المقام :

«الأمير شكيب كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه ، ودليلاً على صواب حكمه ، ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة فطرته وأصاله رأيه وغلو معدن ذكائه ، وما وهبه الله من قوة فراسة فوق ما امتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية» (٣).

وشكيب أرسلان يلحظ من نفسه هذه الصفة ، ويعللها بالتفكير والتأمل ، وكثرة المطالعة ، فيقول : «لست من الكهان ، ولا من العرافين ولله الحمد ، ولا أنا بعجزي وضعفي من الأولياء الذين يكاشفون بكثير مما وراء حجب الغيب ، ولكني أفكر وأتأمل ، وأكثر مطالعة الكتب والصحف ، لاسيما ما تعلق منها بالتاريخ والسياسة ، ولذلك تصح أقوالي عن كثير من الحوادث قبل وقوعها» (٤).

١ - شكيب أرسلان ، من رسالة أرسلها إلى (أكرم زعير) سنة ١٩٣١م ، جريدة الشرق الأوسط ٢٤/٣/١٩٨٦م .

٢ - أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان ، داعية العروة والإسلام ، ص ٢٥٥ .

٣ - المرجع السابق عن «الشباب ، ١٥ ديسمبر ١٩٣٧م» .

٤ - المرجع السابق ص ٢٥٦ .

ويذكر - شكيب - أنه تكهن بنشوب الحرب العالمية الأولى قبل بدنها بنحو سنة وأربعة أشهر ، ونشر ذلك في جريدة « الشعب » المصرية في ٢١ مارس سنة ١٩١٣ م ، وأعاد نشره حرفياً في مجلة الفتح عدد ٥ صفر ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) (١) .

ومن الوقائع الخطيرة التي تنبأ بها الأمير شكيب أن انجلترا ستتكث وعودها التي أعطتها للعرب إبان الحرب العالمية الأولى ، وأن البلاد العربية ستصير إلى إحتلال الأجانب ، وأن فلسطين ستكون وطناً قومياً لليهود ، وقد كتب إلى الشريف حسين يحذره من ذلك ، وفي هذا يقول شكيب :

« لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهياً مقسماً بين انجلترا وفرنسا ، وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وهذا التكهّن كان عندنا مجزوماً به ، حتى أنني كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء ما ازدادت يقينا ، ثم انتهت الحرب ، وانتصر الحلفاء ، وارتفع الغطاء ، فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول » (٢) .

وقال شكيب أن الملك حسين ملك الحجاز سيندم وسيخلع من ملكه وكذلك كان ، وتنبأ بأن نفيه سيكون لجزيرة . وكذلك كان .

ولما قيل له : ولماذا اخترت جزيرة ؟ . أجاب : لأن انجلترا لها جزائر كثيرة ، وقد نفى الملك حسين بعد ذلك إلى قبرص (٣) .

كما تنبأ بنشوب الحرب العالمية الثانية وكتب سنة ١٩٣١ م يحذر العرب من نتائجها ، ويدعوهم إلى الاتحاد لدرء الخطر القادم ، ومما قاله في ذلك : « الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والحرب الأوروبية مهما تأخرت فهي آتية ، لا ريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ومن المعاضات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية » (٤) .

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٠٦ - والملاحظ أن شكيب كتب هذا في (الشورى) عدد ١٠ إبريل ١٩٢٩ م .

٣ - المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

٤ - الفتح ، عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠ هـ .

كما بشر الأمير شكيب أرسلان بقيام (الجامعة العربية) قبل قيامها بسنوات طويلة ، فكتب في كتابه (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) أنه قال سنة ١٩٢٩ م : «إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللثام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ، ولو بعد مئة سنة أو أكثر» (١).

كما واصل الحض عليها مؤكداً ثقته في نظريته المستقبلية للأحداث فيقول - في سنة ١٩٣٧ م - : «وأنتم أيها العرب الكرام : إذا دعوناكم للوحدة العربية فلا تقاومونا ، ولا تهزأوا بنا ولا تقولوا : خيالات ، ولا تحملوا على مشروع هذه الوحدة كما فعل كثير منكم يوم قمنا بالدعاية إليه منذ سبع سنوات ، ثم عادوا إلي رأينا ، وصاروا في مقدمة أنصاره» .

لقد أثبتوا للناس أننا - والحمد لله - موفقون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا ثمانى مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتزيد الحوادث ، ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح» (٢).

ومن أخطر الأمور التي تنبه لها الأمير (شكيب أرسلان) منذ وقت مبكر : «مؤامرة التجهيل بحضارة الإسلام» ، فحذر من خضوع مناهج التعليم في البلاد الإسلامية ، ومصادر الثقافة فيها للمصادر الأجنبية - وهو ما حدث طوال فترة الإستعمار الأجنبي- (٣) ، وبين (شكيب أرسلان) أن ضرر ذلك سيكون أشد من الإحتلال الأجنبي نفسه ، ونسيتمد أثره بعد تقلص الإحتلال ليزلزل ثقة المسلمين في أنفسهم ويدفعهم إلى النظر إلى الغرب نظرة إكبار بصفته المثل الأعلى في الحضارة والتقدم والرقى .

لقد كان شكيب في الواقع اختصاصياً في تشخيص المرض وأساليب علاجه ومداواته بل ووصف طرق الوقاية منه قبل وقوعه ، وعلى هذا الأساس وصف الدواء الواقى وهو

١ - شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف ، ص ٢٠٧ .

٢ - الشورى - ٣ مارس سنة ١٩٣٧ م .

٣ - د . مصطفى حلمي ، الإسلام والمذاهب الفلسفية ، ص ٢٦٢ .

(التربية) العلمية في إطار اللغة والتاريخ والعقيدة مما يحفظ للأمة شخصيتها ودينها .

كما أثبت أنه بإمكان الحضارة الإسلامية أن تقدم للبشرية من جديد أجل الخدمات كما فعلت في الماضي ، وذلك بإثبات فضائل المسلمين على حضارة أوروبا والدعوة إلى إحياء (المدنية الإسلامية) .

وإذا كانت «الصيدلية» العربية والإسلامية تعمدت إخفاء هذا الدواء ، فسنحاول في الصفحات القادمة أن نظهره لعل الله أن ينفع بها الجهد المتواضع أمتنا الإسلامية ، ونكون بذلك قد ألقينا بعض الضوء على جانب جديد مشرق في فكر الأمير (شكيب أرسلان) .

יִתְּס וְיִסְּס וְיִסְּס וְיִסְּס

الجامعة الإسلامية

يقوم تصور الأمير شكيب أرسلان للجامعة الإسلامية على إرادة إخراج المسلمين من وضع الإنحطاط والتفكك والضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية في مواجهة تحدي الحضارة الغربية الحديثة الذي يظهر في أشكال عدة ويمنع بتفوقه وسيطرته نجاح أي مشروع هادف إلى إعادة توحيد المسلمين .

وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية قد نشطت بعد ولاية السلطان عبد الحميد بسنوات قليلة وعلى أثر انعقاد مؤتمر برلين وافتتاح مؤتمرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية^(١) ، ولقد أدرك الأمير شكيب أرسلان طبيعة الإتفاق بين الدول الاستعمارية فلم يكن ليغني في ذهنه إلا استمراراً للغزوة الصليبية ، تغيرت الأسماء والألقاب أم لم تتغير^(٢) .

ولقد قدم الأمير شكيب أرسلان للعالم الإسلامي حقيقة تاريخية بالغة الدلالة وهي أن الغرب الاستعماري يرى في الإسلام الخطر الأعظم الذي ينبغي مقاومته ، بل يرويه « أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيماً »^(٣) ويسوق الأمير لإثبات تلك الحقيقة الكثير من الأدلة التاريخية البارزة منها التواطؤ بين أوروبا والروسيا القيصرية على قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية ، « حتى أن هناك جملة وردت في كلام العلامة (فربرو) فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع المشرقيين ألا وهي قوله : « أن الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شاذة أزر الأخرى »^(٤) .

ولم يقتصر هذا التضامن « بين أوروبا والروسية القيصرية فحسب بل بين أوروبا

١ - عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي ص ٧٢ .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٦١ .

٣/٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٣٣١-٣٣٣ .

والروسية البولشفيفية نفسها ، مع شدة العداوة بين الفريقين» (١).

«فإن الدول الغربية أثارت على البولشفيك كل قدم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوربية .. ولكن قد حذرت كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة اسلامية .. ولا راق لهم تسليح مسلمين .. وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم» (٢).

ومن الأدلة البارزة التي تؤيد موقف الأمير شكيب النظري من الغرب الاستعماري «أن فارس عرضت على انجلترا المحالفة والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبئت انكلترا مساعدة فارس .. وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب فأبئت انكلترا أيضا ذلك .. وأغرب منه أن (تركيا) عرضت على الحلفاء أن تكون معهم بشرط أن تأمن شروهم في المستقبل فأبى الحلفاء .. ويدهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبني على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الإسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الإسلام الباقية الإقتسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب» (٣).

ويرد الأمير الدعوة بأن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥م الشريف حسين ، وهذا ملك من ملوك الإسلام مما ينقض نظرية الأمير ، فيقول : «إنهم - أي الدول المستعمرة - ما قبلوا التحالف مع الشريف حسين بادئ ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، .. فلما طالت الحرب عادوا إلى قبول محالفة الشريف حسين أملاً بفصل العرب عن الترك .. فما وضعت الحرب أوزارها حتى عومل العرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم» (٤).

ويؤكد الأمير شكيب «أن الحلفاء طلبوا أثناء الحرب العامة العون من كل دولة ،

وعرضوا التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أمريكا ، ولم يكونوا ليقبلوا التحالف مع دولة من الدول الإسلامية علماً بما ينوونه للإسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافأة دولة إسلامية بالإبقاء عليها ^(١).

وهكذا ينتهي الأمير شكيب أرسلان إلى استنتاج تاريخي يؤيد فهمه لطبيعة الإستعمار الغربي المعادي للإسلام فيقول :

« فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا يغيّبوها عن نظرهم ، وليعلموا أن الدول المستعمرة لا تقبل من الإسلام حتى ولا الصداقة ، وأنها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال إلا مجاناً » ^(٢).

وإنطلاقاً من هذا الفهم العميق لروح العداء الغربي للإسلام رأى الأمير شكيب ، ومن قبله الأفغاني « أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل » ^(٣) ، فمن سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوي ^(٤) ، ولأن رد الغزوة الأوروبية لديار المسلمين هو أمر يتجاوز طاقة شعب واحد أو قطر بمفرده أصبحت (الجامعة الإسلامية) ضرورة ملحة في نظر الأنبياء شكيب أرسلان .

فالجامعة الإسلامية إذاً أداة وحدة المسلمين ونهجهم ، وهي بمعناها الشامل ومفهومها العام « إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي ، وهي قديمة بأصلها ومشتقة منذ عهد صاحب الرسالة ، أي منذ شرع الرسول صلى الله عليه وسلم يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعاصمة الإسلام لقتال الشركيين » ^(٥).

فمنشأ الجامعة الإسلامية الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في

٢/١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ج ١ ص ٣٣١ .

٣ - ستودارد ، المرجع السابق ج ١ ص ٣٠٧ .

٤ - شكيب أرسلان (المرجع السابق) ج ٤ ص ١٦٠ .

٥ - حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ، ج ١ ص ٢٨٨ .

المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، كما أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره ، وهي أخيراً سنة من سنن البقاء في عالم لا يدين إلا للقوة ولا يحترم إلا الأقوياء ^(١).

ولقد كان الأمير شكيأرسلان على وعي بالعقبات الكبرى التي تطف دون تحقيق دعوته الى الوحدة الإسلامية العامة ، وهي :

أولاً : إنتماء المسلمين إلى أجناس متباينة وإلى دول قومية مختلفة مما ينوطي على مشكلة التوفيق بين الإنتماء الإسلامي والإنتماء القومي .

ثانياً : مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة .

ثالثاً : مشكلة الإنتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين ^(٢).

وبناء على وعي الأمير بتلك العقبات الثلاث على طريق (الجامعة الإسلامية) فقد اجتهد شكيب في رصد كل مشكلة ، وناقش الدعاة إليها ، وبين موقف (الجامعة الإسلامية) منها .

فأمام التعصب إلى الجنس الذي أخذ يشتد في داخل العالم الإسلامي ، دعا الأمير إلى الأخوة الإسلامية القائمة على قاعدة المساواة ، تلك القاعدة المقدسة التي على أساسها ظهر التضامن الإسلامي قوياً راسخاً . يقول شكيب :

«وليس التضامن الإسلامي الذي حار في أمر قوته نطس الأطباء الاجتماعيين ، ودهش من استحكام عراه جهابذة المؤرخين الأوربيين ، إلا نتيجة قوله تعالى : «إنما المؤمنون إخوة» ^(٣).

«وقد ظهرت في هذه الأيام الأخيرة فرق من الأمم الثلاث العربية والتركية والفارسية ، لا يريدون أن يعرفوا هذا الأصل العظيم ولا أن يقيموا له وزناً ، بل زعموا أنه هو الذي كان منشأ ضرر هذه الأمم» ^(٤).

١ - يقول شكيب : «والحقيقة أن القوة المسلحة هي العامل الوحيد الذي يؤثر بالأفترنج» ويقول : «والحق أن القوة المادية هي معبود الغربيين قبل الشرقيين» (المرجع السابق) ج٢ ص ٣٢٤-٣٢٥ .

وهكذا يرصد الأمير شكيب ظهور النزعات الجنسية الإقليمية نتيجة إنتشار الأفكار والآراء والروح الغربية ، ثم يعرض الأمير إدعاءات الداعين إلى العصبية الجنسية الذين يرفضون أن يكون الدين الاسلامي هو الرابطة التي تجمع بين الشعوب الاسلامية ، والتي ينبغي أن تقوم عليها رابطة التعاون السياسي ، فيقول :

«فالذين هم من العرب يعلنون أنه لولا أخوة العرب مع الترك بالإسلام لما فقد العرب ملكهم وسلموا به للترك ، والذين هم من الترك يقولون لولا هذه الأخوة الإسلامية التي فرضها الدين لما بذلت الدولة العثمانية قوتها في الذب عن القضية الإسلامية، بل كانت حصرتها في الذب عن القضية التركية فحسب ، والذين هم من الفرس يقولون ما لنا وللعرب والترك ، كل من الأمتين عدوة لنا فلولا الإسلام لم يكن لنا بهما أدنى رابطة، فيجب أن نعود فرساً كما كنا» (١).

وقد فند شكيب مزاعم هؤلاء الذين لا يرون الاستمسك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين، وتستوحش منها نزعاتهم العنصرية ، وبين أن الإسلام لم يضر أية أمة من هذه الأمم بشيء لا في دين ولا في دنيا ، وأن تلك الأخوة والرابطة التي جمعت بين المسلمين هي التي مكنت لهذه الأمم في الأرض ، وبها عزوا بين الأمم قروناً طويلة ، يقول الأمير شكيب :

«والجواب على الفئة الأولى ، أنه لولا تلك الأخوة الشرعية ما أمكن العرب أن يقوموا بتلك الفتوحات الباهرة في صدر الإسلام ، ولا دانت بدينهم الأمم ، ولا اتخذت كتابهم دستوراً ، ولا نبههم نبيها ، فإن كانوا فقدوا الملك فيما بعد ، فلم يفقدوه إلا بتنازعهم وتنافسهم ، ولعل الأخوة الشرعية التي يشكون ضررها قد لطفت الضرر الذي أصابهم من أثر السقوط ، بحيث أن الأمة الحاكمة فيما بعد كانت ترعاهم نوعاً وتبقى عليهم بسبب جامعة الإسلام ، فلما أدبيل منها بدول غير إسلامية ذاقوا طعم الفرق بين تلك الدولة الإسلامية والدول الأجنبية التي خلفتها في الحكم على العرب» (٢).

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٤ ص ١٥٨ (المرجع السابق).

٢ - المرجع السابق ، ج٤ ص ١٦٠/١٥٨.

«والجواب على الفئة الثانية أن الأواصر الإسلامية لم تضر الترك في شيء بل أعطتهم ملكاً طويلاً عريضاً ، وجاهاً كبيراً لبشوا يستطيّلون به على الأمم مدة قرون وأحقاب ، من أيام الأتابك والطولونيين إلى السلاجقة إلى العثمانيين الذين لم يقتصروا على الملك فقط بل استولوا على الخلافة الإسلامية أي على الرئاسة العليا على ثلثمائة مليون مسلم بين مطلع الشمس ومغربها .. إن الترك أصبحوا بعد هذا بالنسبة إلى المجموع جزءاً يسيراً في المملكة فلم يكن ليتسنى له التسلط على بقية الأجزاء لولا الوحدة الإسلامية التي جمعت بينه وبين العرب والأكراد والجراكسة والأرناؤوط والبربر وكونت من كل هؤلاء عصبية واحدة ، ولولا كونه قائماً بحياطة الدين الإسلامي تلك الحياطة التي هي عنوان الدولة العثمانية» (١).

«وجوابنا على الفئة الثالثة أن الإسلام لم يضر فارس بشيء في دين ولا في دنيا ، أما من جهة الدين فإنه نقلها عن عبادة النار إلى عبادة الواحد الأحد ، وأما من جهة الدنيا فقد ازدهرت فارس بعد الإسلام ازدهاراً لم تعرفه من قبل إلا قليلاً ، لا بل استولت فارس على الدولة العباسية العربية وصارت هي روح تلك الدولة برباطة الإسلام وحده ، لا بقوة فارس نفسها» (٢).

ويختتم الأمير جوابه على هذه الفرق الثلاث بتوجيه خطاب لفئة من المصريين أيضاً - الذين «يذهبون إلى أنه «ليس فيهم شيء غير مصري» وأن المسألة المصرية ينبغي أن تبقى منفصلة عن كل مسألة شرقية إسلامية أو غيرها» (٣) فيحذر الجميع بأنهم مقبلون على منحى سيانسي جديد ، وليس للإنسان أن يحكم على الشيء الجديد إلا بعد التجربة ، ولكن الأمير شكيب يؤكد ببعد نظره السياسي ، ونظرته المستقبلية الثاقبة أن (سياسة الإنفراد) هذه ستقود الجميع إلى الفشل فمن سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوي «ومما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق مادام مفكك الأجزاء» (٤).

١ - المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٥٨ / ١٦٠ .

٢ - المرجع السابق ج ٤ ص ١٥٠ .

٤ - شكيب أرسلان ، داعية العربية والإسلام ، تأليف أحمد الشرباصي ، ص ١٥٢ .

ولقد سبق الأمير شكيب أرسلان عصره بالدعوة إلى سياسة (التكتلات) وهي تتمثل في أسس صورها في (الجامعة الإسلامية) لأهمية العقيدة الدينية الكبرى في توثيق الترابط بين المواطنين ، وفي إيجاد قومية مؤمنة لهم ، فإن أبى دعاة العصبية العصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا .

«فليست الجامعة الإسلامية هي الحرية الوحيدة التي يقدرون أن يقتصر بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في أسس كانت أوسع نطاقاً ، ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب» (١).

ويعود الأمير شكيب ليثبت ضرورة الجامعة الإسلامية كتوفيق بين مقتضيات التعصب القومي ومقتضيات التعصب الإسلامي فيذكر أن «الدول الاستعمارية تحارب الجامعة الإسلامية والرابطة الوطنية معاً ، ولكنها تخاف من الجامعة الإسلامية أكثر ، وذلك لأن الجامعة الإسلامية تقول أن من يخرج عن الرابطة الوطنية يعد في نظر قومه خائناً وكافراً معاً ، فلا يكون آثماً أمام الناس وحسب بل يكون آثماً أمام الله أيضاً ، وغير خاف أن رابطتين أشد من رابطة واحدة ، وأن رابطة يعتقد صاحبها أنها مناط ثواب أو عقاب في الآخرة هي أمتن من رابطة لا ثواب ولا عقاب فيها ، وإنما هي دينوية محضة» (٢).

ويلخص الأمير شكيب براهينه على رأيه في تفضيل الرابطة الإسلامية الدينية على الرابطة الجديدة الوافدة التي تسمى (بالوطنية) المجردة عن الإسلام ، فيقول :

أولاً : الوطنية المجردة الملحدة لا تمنع الذوبان في الأجانب كما تمنعه العقيدة الإسلامية ، فإن الأولى تمنعه من الجهة الدنيوية فقط ، وأما الثانية فتمنعه من الجهة

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ٨ شوال ١٣٤٩ هـ .

٢ - شكيب أرسلان ، داعية العروة والإسلام (مراجع سابق) ، ص ١٤٨-١٤٩ .

١ - «وقد كان السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الإسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك» محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٢٨٩ .

الدنيوية والأخوية معا .

ثانياً : الوطنية المجردة عن الإسلام معرضة لما ليست تتعرض له الجامعة الإسلامية من خطر انحلال الأخلاق التي هي دعائم الأمم .

ثالثاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال في حسن المآل ما تبعثه العقيدة الإسلامية المبنية على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به .

رابعاً : العقيدة الوطنية المجردة لا تزرع في صدر الشرقيين عزة النفس والاعتقاد بالكرامة الشخصية كما تزرعه العقيدة الإسلامية في صدور المؤمنين الذين يقول لهم قرآنهم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

خامساً : العقيدة الوطنية المجردة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط ، مما يفقدهم بذلك قوة لا عوض لهم عنها ^(١) .

أما العقبة الثانية التي تعترض قيام (الجامعة الإسلامية) فهي مشكلة التوفيق بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الواحدة ، وفي هذا يقرر الأمير شكيب أن قوة الأخوة والرابطة بين المتحدين في العقيدة أمر طبيعي ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من التأخي في الوطنية بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقول : « وإن كان بين المسلمين أثر من الجامعة الإسلامية فليس من عجب في ذلك لسببين :

أحدهما : أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان ، حتى ولو لم ينتموا إلى عقيدة واحدة ، فكيف إذا اتحدوا في عقيدة ؟

الثاني : أن المسلمين من حيث المصروع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ، ويرزون فيهما سعادتهم وراحة وجداناتهم ، وفي القرآن الكريم : « إنما المؤمنون إخوة » فالمسلم يجد إخاءه للمسلم فرضاً محتماً عليه ، ومؤازرته من باب الشرع الذي من ترك شيئاً منه فهو آثم .

ولا يؤخذ من ذلك أن هذه الأخوة بين المسلمين حاجزة دون الإخاء مع غير المسلمين ، كما يتوهم بعضهم ، أو كما يفترى آخرون ، كلا ، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة الإنسانية» (١).

إن جوهر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية سياسي إلى حد بعيد ، ولذلك فهي لا تتوجه بالعداء إلى الفرق الدينية الأخرى ، وإنما إلى الاستعمار الغربي تحديداً ، يقول الأمير :

« فالجامعة الإسلامية ليس معناها في نظرنا أن يقوم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ليؤلفوا كتلة واحدة ليقاتلوا كل من هو غير مسلم » فالجامعة الإسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين إلى غير المسلمين في إطار الغايات الواحدة ، هي تقدم للمشرقيين عموماً ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتغدوا أداة توحيد للشعوب المقهورة ، تماماً كما وجد الأوروبيون أداة توحيدهم :

« فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الأوربيين في وجه الإسلام والشرق بأسره ، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً (٢) لا سيما أن بين هؤلاء رابطة دينية ... » (٣).

ولذلك لا يرى شكيب في قيام الجامعة الإسلامية خطراً على غير المسلمين في داخل البلاد الإسلامية ، بل هي دعامة للشعوب الشرقية بأسرها ، ويستشهد شكيب لذلك بقضية فلسطين إذ أن كثيرين من المسلمين يؤيدونها ويدافعون عنها برابطة الإسلام ، فيقول شكيب : « إن الجامعة الإسلامية ليست يخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هي عضد للشعب العربي بأسره ، فلماذا يعطف مثلاً مسلمو الهند والجاوي والفرس والترك والبشناق والأرناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة ، لا لأنها عربية » (٤).

١ - شكيب أرسلان ، داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص ١٤٩ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، (مرجع سابق) ، ج ١ ص ٢٣٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٣٤٠ .

٤ - شكيب أرسلان ، مجلة الشورى ، عدد ١٢/٣١ ، ١٩٢٥ م .

أما وضع غير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية فقد حدده الشرع الإسلامي في حقوق أهل الذمة ، والتاريخ يشهد على الترك في عهد الدولة العثمانية «بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقدرون في أوقات عديدة أن يستأصلوهم أو أن يحملوهم على الجلاء ، كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب .. إن الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الإسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الإكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية» (١).

وثمة عقبة ثالثة تخترق الأقطار والشعوب الإسلامية وتحول دون اجتماعهم ووحدتهم ، وهي الإنتماء المذهبي التاريخي بين المسلمين ، فالمسلمون ينقسمون تاريخياً إلى سنة وشيعة ، وفي داخل كل قطر من أقطار العالم الإسلامي تتعدد المذاهب ، وقد تختلف الفرق والعصبية في القطر الواحد وبين من ينتمون إلى جنس واحد وأصل مشترك وتجمعهم رابطة الإسلام .

ولقد حرصت الدول الإستعمارية على بث الإحن أينما حلت وعلى بعث النعرات والعصبية في الشعوب الإسلامية ، وأخذت تدفع هذا ضد ذاك كيما يكون الشقاق مدخلاً لتدخلها وحجة لاستعمارها ، يقول شكيب :

«إذا كان عمال فرنسا منذ أول احتلالهم لسورية ، أي منذ سنة ١٩١٨م إلى ساعة تحرير هذه السطور ، لم يفتروا يوماً واحداً عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سورية وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والدحول قد سكنت وتلاشت تقريباً ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوأ حال من هذه الجهة مما بذرتة يد الاحتلال التي ظنت أنها لا تمتد إلا على بساط شقاق ، ولا تتمكن إلا من خلال فتنة ، فما ظنك بما كان يفعله عمال فرنسا في الجزائر من تحريك الإحن بين العرب والبربر» (٢).

لذلك حرص الأمير شكيب على مواجهة التعدد المذهبي الذي يصيب رابطة العقيدة

١ - أحمد الشرياصي «شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام» ص ٨٠ ، نقلاً عن «عروة الإتحاد» ص ٣٦ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٨٧ .

الواحدة بالضعف ، إن لم نقل بالشلل في وجه التحدي الغربي ، و أبرز الأمثلة التي تمثل سياسة الأمير في جمع الكلمة وعدم التفرقة بين الأمة دفاعه عن إسلام الطائفة الدرزية وأصولها العربية ، وفي ذلك يستشهد بموقف الدولة العثمانية منهم فيقول :

«والدولة العثمانية أيام كانت هي الخلافة الإسلامية عرفت الدروز مسلمين ، ولما كان جماعة من مشايخ دروز حوران في الاستانة صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الخليفة يومئذ بأن يصلوا الجمعة وراءه في جامع يلدز ، ولهذا أنا لا أفهم : ما وجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفة الإسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم باسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها - لا بل أكثر من تسعة أعشارها - للمسلمين ، لأن الدروز في سورية ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون على المليونين» (١).

ويختم الأمير شكيب دفاعه عن عروية الدروز قائلاً : « فأولئك الذين يعدون الأجانب بأن آل معروف - يقصد الدروز - يكونون إلى جانبهم على الأمة العربية قد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً . فمهما يكن من العوامل فإنه متى انقسم الناس ، ولحق كل فريق بأهله ، فأبناء معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ، ولا من الجامعة الإسلامية ، ولن يقدر أحد أن يخل بهذه القاعدة : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » (٢).

والأمير شكيب أرسلان لا يستطيع في دعوته إلى الوحدة بين المسلمين تجاهل انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، وهو الانقسام الأخطر في تاريخ الإسلام ، وخاصة بعد انتشار (التشيع) في بلاد فارس واتخاذها أداة سياسية المقصد منها مقاومة الحكم العربي .

ولقد بحث الأمير شكيب أرسلان نشأة التشيع ورأى أن العرب أقدم فيه من

١ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٦ .

٢ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٢ .

الفرس، «فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب ، وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري»^(١).

«ولكن مما لا مشاحة فيه أن أهل فارس يغلون في علي وآل البيت أكثر جداً من الشيعة العرب ، كالزيدية في اليمن ، والمتاولة في الشام ، والشيعة في العراق»^(٢).

وعلى الرغم من تشيع العجم لآل البيت مع علمهم بأنهم من العرب الأقحاح إلا أن تشيعهم لم يقربهم من العرب ، بل بقوا على بغضهم للعرب واستكبارهم الخضوع لهم ، وهذا ما سجله الأمير شكيب ولمسه بنفسه من مخالطة بعض فضلائهم ، وكان مثار دهشته وتعجبه ، يقول شكيب :

«ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالإسلام ، وشدة استمسكهم بالتشيع لآل البيت ، لا تزال تمجد فيهم في الأحايين آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب»^(٣).

ويخرج الأمير شكيب من دراسته وتأمله لنفسية الفارسي التي تجمع بين الحب والبغض في مكان واحد - كأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان إحداها إسلامية والأخرى فارسية^(٤) - بحقيقة خطيرة لها أثر عظيم في خلخلة تماسك الوحدة الإسلامية عبر التاريخ ، وهي «أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الإسلامية التي جاءت من العرب ، وأن هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون إلى آل البيت ، منها أن استيلاء العرب على فارس أوجد في العجم مناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ؛ فلذلك رأيتهم انتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة في حرب بني أمية الذين كانوا مركزهم الشام ، ومازالوا حتى حولوا الخلافة إلى العراق ، وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية»^(٥).

١ - المرجع السابق ، ج١ ص ١٦٣ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٦٣ .

٣ - المرجع السابق ج١ ص ١٨٧ .

٤ - المرجع السابق ج١ ص ١٦٤ .

٥ - المرجع السابق ج١ ص ٦٤ .

كما أن الفرس قد نقلوا كثيراً من عقائدهم القديمة إلى الإسلام ، وانتقضوا على العرب مراراً ، وحاولوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية إنما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية في أصلها ^(١).

وهكذا ظل العجم عامل ضعف في كيان الأمة الإسلامية المتماسك عبر العصور فلما كان هذا العصر (عصر القوميات) - اقتداءً بالأُمم الأوروبية في الزمن الأخير - اشتدت (القومية الفارسية) أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ^(٢).

ويشير الأمير إلى خطورة التماذي في بعث العصبية إلى درجة ظهور الدعوات في بعض الممالك الإسلامية إلى نبذ الإسلام وبعث المعتقدات الوثنية القديمة بعد أن أنقذهم الله منها ، وطهرهم من سفالاتها ، يقول الأمير :

« وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة ^(٣).

وينقل الأمير شكيب رد المرحوم موسى كاظم شيخ الإسلام على حنين بعض شبان الترك إلى ديانتهم القديمة وإلى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب قوله :

« إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأيدان ولكنهم اقتلعوها بالإسلام واقتخروا بأن الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات. وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالباري تعالى ، وتذكروا عبادة الذئب الأبيض.. فيالأسف !! ^(٤).

وما قيل لناشئة الفرس والترك يقال لبعض ناشئة المسلمين :

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١٦٤ .

٢/٣/٤ - المرجع السابق ، ج١ ص ١٦٧-١٦٨ .

« من أمة الجاوي الذين يبحثون عن مذهب بوذا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيوا آثاره »^(١).

« كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الإسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداك »^(٢).

« وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة إلى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة الفرعونية ، وميل إلى التفصي من النسبة العربية والحضارة العربية »^(٣).

« وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشيء من الكبر عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالتهم »^(٤).

وعلى كل هؤلاء الذين تجاوزت عصبيتهم حدود الجنس والنسب إلى التعصب للمذاهب والمعتقدات البالية مع ما فيها من وثنية وحط من قدر الإنسانية بل وتفضيلها على دين الحق والهداية الذي أخرج الله به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان والعزة ، بدعوى استكبارهم الخضوع لدين أصله من العرب ، يرد الأمير شكيب بأن الإسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي ، وأن مبدأه الأساسي : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلى العرب وحدهم بل إلى البشر كافة ، فإن كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهي في الإسلام »^(٥).

ومن أعجب الشواهد على فساد عقل هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم أنهم يجعلون الأمم الأوروبية قدوتهم في كل شيء ولا يرون : « أن الأوروبيين وهم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الأرضية وهم يعلمون أنهم جميعاً من الجنس الآري ، يتبعون ديانة رجل يهودي من الجنس السامي المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤلهوه ، ومنهم من يعبد أمه .. فهل سمعنا أن أحداً من الأفرنج استكبر أن يتبع سيدنا

١/٢/٣ - المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦٧-١٦٨ .

٤/٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٦٨ .

عيسى علي السلام ؟ .. كلا » ^(١).

« أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربي وهم غير مكلفين أن يؤلهوه ولا أن يقدسوه تقديس الأفرنج للمسيح » ^(٢).

ثم يختتم شكيب رده المفحم على أدعياء القوميات هؤلاء بقوله « فياليتهم اقتدوا بالأفرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات » ^(٣).

وأمام كل هذه العقبات لا يفقد الأمير شكيب تفاؤله ، ولا ثقته في نجاح دعوته إلى (الجامعة الإسلامية) بل يرى أن المحن التي حلت بالدول الإسلامية ، والضعف الذي أصاب الأمة في العصر الحاضر قد نبها المسلمين إلى ما يهددهم من خطر ، وإلى ما يضره الغرب لهم جميعاً من الغدر والشر ، فكان ذلك سبباً في طرح ما بين الأحزاب المختلفة من الأحقاد ، واجتماع مشاعر المسلمين على وجوب نبذ الفرقة والتماسك أمام العدو المشترك .

يقول شكيب : « ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التي كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشر خيراً » ^(٤).

ويؤكد الأمير شكيب « أن الأمة الفارسية في العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الإسلامي جميعه ، فتتهم لتركيا ، ولبلاذ العرب ، ولمصر ، وللمغرب ولكل بلاد الإسلام اهتماماً أكيداً ، ويكرثها ما يكرث المسلمين ، ويسرها ما يسره » ^(٥).

٣/٢/١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص١٦٨ .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص١٩٢ .

٥ - المرجع السابق .

ولقد ظل الأمير شكيب أرسلان منذ نعومة أظافره مناصراً (الخلافة الإسلامية) ، على اعتبار أنها المظهر السياسي الأعلى (للجامعة الإسلامية) ^(١) ، وعلى الرغم من محاولات الأمير في معالجة دولة الإسلام ، وتحذيره من سقوطها إلا أن التاريخ جرى على غير ما يشتهي وبروم ، وانتهت الحرب العالمية الأولى بسقوط الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الدولة التي كانت قوام أمرها وواسطة عقدتها .

ومع أن شكيب قد أدار ظهره لحكام تركية بعد أن قطعوا روابطهم بالعرب والمسلمين ، وأخذ يجاهد مستقلاً من أجل وحدة العرب وأخوة المسلمين ، فقد ظل يظهر حزنه على إلغاء الخلافة ، لأنها كانت في نظره أحسن علاقة جامعة بين المسلمين ، وهو مع ذلك يقول في تعقيبه على فصل الجامعة الإسلامية من كتاب (حاضر العالم الإسلامي) : «إن الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج» ^(٢).

ولقد تصدى الأمير شكيب أرسلان لدعاة (القومية العربية) في زمن (الخلافة العثمانية) ، ولكن بعد تنكر الحكام الأتراك للإسلام - أولئك المسلمون الجغرافيون (كما يصفهم شكيب) الذين تواطأوا مع الأجانب في لوزان على إلغاء الشريعة الإسلامية من بلادهم ^(٣) إلتفت الأمير إلى الأمة العربية ، فرأى بشاقب بصره ونظرته أن الإبقاء على البلاد العربية إبقاء على عمود الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحدة العربية ، وأول فكرة لتأليف (الجامعة العربية) بوصفها أفضل بديل متاح من (الجامعة الإسلامية) التي تفككت عراها بسقوط (الخلافة الإسلامية) ، حتى قال له الملك فيصل : «أشهد بأنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية» ^(٤).

١ - أحمد الشريضي ، «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» ص ٢١٤ .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٩ «هامش» .

٣ - أحمد الشريضي ، «شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام» ص ٢٢٠ .

ومع ذلك ظل الأمير مخلصاً (للجامعة الإسلامية) ولم يتخل عن الدعوة إليها ، مؤمناً بمستقبل الإسلام ، واثقاً بسيادته للعالم ، وينشره العدل بين ربوعه ، وإقامته السلام والطمأنينة مقام الحروب والقتال : « هذا وأن رأينا الذي نعول عليه أولاً وآخراً ، ونرجع إليه باطناً وظاهراً ، أن الشرق أجمع سيتنبه من رقده ، وينهض من كبوته ، وأنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرها ، وأنه لا تمضي الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلي الإسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هي مقاصد ترك بالرقى أو العيافة ، ولكن يعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الأول على الآخر » (٢).

« هذا وإن نهوض الشرق هو الشرط الأول في سؤدد السلام ، وراحة الأنام ، وحقق الدماء الحرام ... وما دام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالاً ، والإستعمار لدول أوروبا ليلاً تقفوه يمينا وشمالاً ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة إلى قيام الساعة . . . والإختراعات التي تفتخر بها المدنية مصروفة إلى استئصال البشر وناهيك ما في مدنية كهذه من الشناعة » (٣)

« وما دامت جمعية الأمم مثل العروض بحراً بلا دماء ، ما وجدت إلا لتلبس الإعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز .. »

« فلا مندوحة للأمم الشرقية عند الإقتداء باليابان في التماس الصنعة ، ومضارعة الدول الغربية في إرتياد العلم واقتباس الصنعة » (٤).

١ - شكيب أرسلان ، « رشيد رضا » ص ١٦١ .

٢/٣ - ٤ - شكيب أرسلان ، ج ١ ص (ك) ١٩٢٥/٣ م .

الجامعة العربية

الجامعة العربية

مع سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م انتهت السياسة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية ، وبرزت العصبية القومية التي حاربها عبد الحميد بكل جهده أيام حكمه ، وكان العرب والترك يلتقون عند الإسلام الذي يوحد بينهم ويسوي بين أفرادهم ، فلما صاح الترك مفاخرين بطورانياتهم استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم القديم ، فبدأ العرب - وهم الأمة التي ظهرت فيها الرسالة الإسلامية ونزل كتابها بلسانهم - يستنكفون من حكم الترك الذي بسط عليهم نفوذه منذ القرن السادس عشر .

ولكن لم تظهر المسألة العربية ظهوراً مستقلاً في التاريخ الإسلامي عن الفهم الإسلامي للأمة إلا بعد أن أعلن الشريف حسين (الثورة العربية) في ٩ شعبان سنة ١٣٣٥هـ (١٠ يونيو ١٩١٦م) على وعد من الإنجليز أن يجعلوه ملكاً على الدولة العربية التي تشمل جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وأن لا يعارضوا في تنصيبه خليفة على المسلمين ، وخاض الحرب هو وأولاده في سبيل ذلك إلى جانب الحلفاء حتى دخلوا دمشق تحت رايته ، راية الثورة العربية^(١).

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان على وعي بما ستجره هذه الثورة على العرب من ويلات ، فكتب للملك حسين حين علم عزمه على الإغارة على سوريا مع الجيوش الإنجليزية ، ينهاه عن المضي فيما هو فيه من دعوة زعماء السوريين للخروج على الدولة العثمانية والإلتحاق بالجيش الحسيني العربي ، ويحذره عاقبة هذه الغارات التي يضرب فيها العرب بالعرب خدمة لمصلحة العدو ، إذ يقول : « أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير ، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء انكلترا على جزيرة العرب ، وفرنسا على سوريا ، واليهود على فلسطين ؟ »^(٢).

والأمير يحذر في رسالته من غدر الإنجليز الذي يملأ التاريخ شواهد ، ويخاطب القائمين بالدعوة العربية والمخدوعين بها قائلاً :

١ - د. محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص ٥٠ .

٢ - المنار م ٢٥ ، ج ٩ ص ٧١٣ - ٧١٨ .

« قل لهؤلاء القائمين بالدعوة العربية ، الناهضين لحفظ حقوقها وأخذ تاراتها : ماذا إلى اليوم أمنوا من حقوق العرب بقيامهم ؟ ليقولوا لنا ماذا أقاموا للعرب من الملك حتى نشكرهم ونقر بفضلهم ، لأننا عرب نحب كل من أحب العرب ، ونبغض كل من أبغض العرب ، ولا نبالي بالقليل والقال أمام الحقائق »^(١).

ولقد سلم الكثيرون بصواب رأي شكيب في القضية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ومنهم من صارحه بهذا واعتذر إليه ، ومنهم من وضع يده في يد شكيب ، ومنهم من اقتنع عملياً وإن لم يعتذر بلسانه^(٢) ، ويقول شكيب في ذلك : « فلما انجلى الغبار وانكشفت الأسرار ، وعرفوا أنني ما تكهنت إلا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم في يدي وعولوا علي ، ومن هؤلاء الملك فيصل رحمه الله ، فإنه ما سقط عن عرشه في دمشق حتى أرسل إلي بمكاني في برلين رسالة تدل على منتهى الثقة ومزيد الاعتقاد بإخلاصي للقضية العربية ، وأفضى إلي بأسرار لا يفضي بها إلى أعز الناس عليه ، وبعد ذلك بسنوات جاءني منه كتاب هو عندي يقول فيه : أشهد بأنك أول من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية »^(٣).

« والواقع أن الذين دعوا إلى (الجامعة العربية) في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متباينين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه الدعوة ، كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية ، وتجمعهم تحت راية السلطنة العثمانية التي جمعت بين الزعامة السياسية والزعامة الدينية منذ تلقب سلاطينها بلقب الخلافة الإسلامية »^(٤).

« وكان بعض دعاة ما سمي في ذلك الوقت بالجامعة العربية من المسلمين خاصة لا يرون تعارضاً بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها هي الجامعة الأولى ،

١ - المرجع السابق .

٢ - أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ، ص ١٠٧ .

٣ - شكيب أرسلان ، السيد رشيد رضا ، ص ١٦٠ .

٤ - د . محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص ٢٠٨ .

والأهم بين المسلمين في سائر الأرض ..» (١)

«وكان بعضهم الآخر يدعو إلى نقل الخلافة للعرب ..» (٢).

«وكان هناك فريق ثالث من المسلمين أنفسهم واقع تحت تأثير الدعوات القومية المتطرفة التي اشتدت حركتها في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. وهذا الفريق يلتقي في تصوره القومي مع غلاة القوميين من الترك الذين يدعون إلى القومية الطورانية ، والذين كان أكثرهم منضماً إلى حزب الاتحاد والترقي ..» (٣).

«أما المسيحيون .. فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يرى الجامعة العربية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعة الإسلامية ، وليس له ولا قلب لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الولاء السياسي ..» (٤).

وقد تسابق الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والصهيونية إلى احتضان الحركة العربية الثائرة على تركيا منذ ظهورها ، وقد وجدوا أنها تلتقي مع أطماعهم في فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضهم .

كما أكد الأمير شكيب أن الإنجليز كانوا على اتصال بالشريف حسين قبل وأثناء الحرب الكبرى الأولى ، وكانوا يتظاهرون بالموافقة على نقل الخلافة الإسلامية إلى الشريف حسين حتى يطمئن إليهم ، ويسلس لهم القياد (٥).

لذلك دعا الأمير شكيب العرب إلى عدم الانخداع بدعاوي الاستعمار ، وإلى

١ - المرجع السابق ، وكان يمثل هذا الفريق في مصر (مصطفى كامل) .

٢ - بدأ هذا التصور الإسلامي في مصر واضحاً في كتاب الكواكبي «أم القرى» ، كما كان يبدو في صحيفة «المنار» لمحمد رشيد رضا ، وإن كان الأخير قد دأب على مهاجمة الشريف حسين من بعد ، حين تبين له أنه آلة في يد الإنجليز لتحقيق أهدافهم لا لتحقيق أهداف العرب «د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية ، ج ٢ ص ١٢٣» .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) ص ٢٠٩ .

٤ - المرجع السابق .

٥ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٣٩٠-٣٩١ .

وجوب الإلتفاف حول راية الخلافة العثمانية ، والإعتصام بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنتظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة.

ولم يكن هذا هو رأي الأمير شكيب وحده ، بل كان يراه أيضا جمع من العرب ، وإن كانوا قلة بالنسبة إلى مخالفينهم ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن استمالة الإنجليز للعرب ، وجعلهم ضد تركيا في الحرب العالمية الأولى ، ثم يقول : « فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلبا وقالبا ، متوقعين لذلك أول فرصة ، ولا يمكن أن يقال أن هذا رأي الجبهة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب » (١).

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع المشرق العربي بين إنجلترا وفرنسا كما توقع شكيب أرسلان ، أما المغرب العربي ، فقد كان شطر منه في يد فرنسا من قبل ، وكانت مصر في قبضة جيوش الاحتلال الإنجليزية منذ الثورة العربية ، وكانت ليبيا محتلة بالجيوش الإيطالية منذ غزتها قبيل الحرب العالمية .

وعند ذلك شهد الجميع ببعد نظر الأمير شكيب أرسلان ، وسلامة موقفه السياسي من أحداث عصره ، ودقة استشعاره للأحداث قبل وقوعها ، حتى قال الحاج أمين الحسيني سنة ١٩٥٥م : أن شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين ، وكان يجاهر بهذا ، ويقول لمخالفيه : « أنا أشد عربية منكم ، ولكن أعلم أن الحلفاء سينكثون عهودهم وستظهر الحقائق لكم » (٢).

ولقد كان الأمير شكيب أرسلان واثقاً في حسن تقديره للأمور ، مؤمناً بصواب الخط السياسي الذي ينتهجه ليس بمجرد الحدث والتخمين بل بناء على قرائن وأدلة

١ - شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٤١ .

٢ - أحمد الشراصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ١١٠ .

ثابتة عنده ^(١)، وبناءً على تفكير سنياسي عميق لا ينخدع بظواهر الأمور ومقدماتها ، وكان على وعي بما يدبر لأمتيه في الخفاء ، وكان يقول : « لقد أثبتوا الناس أننا - والحمد لله - موفقون في آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا ثمانى مرات في العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتؤيده الحوادث ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح » ^(٢).

ولكن تركيا العثمانية الإسلامية سقطت في امتحان الحرب ، فكان لسقوطها وقع بدل زحول في الكثير من المفاهيم والمعتقدات السياسية الراسخة في العالم الإسلامي ، كما سقط بسقوطها الشكل السياسي للجامعة الإسلامية التي كانت هاجس شكيب أرسلان وشاغله في المرحلة الأولى من حياته ، وبدأ بعدها في التحول إلى المرحلة الثانية في اتجاه (الجامعة العربية) .

ولكن التحول هذا هو تدرج وامتداد وليس إنقلاباً ^(٣)، ففهم الأمير شكيب أرسلان للجامعة العربية في المرحلة الثانية لم يكن سوى امتداد طبيعي لجوهر الغايات التي حكمت جهاده في سبيل الجامعة الإسلامية في المرحلة الأولى .

وينطلق الأمير شكيب أرسلان في فهمه (للجامعة العربية) « بأن العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام ، ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيامة ، وبأسهم أبدأ بينهم .. » ^(٤).

« فلما جاء الإسلام ووجد بينهم في الدين ، وقال الله تعالى : « إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » ^(٥) ، لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب

١ - يقول شكيب : « أنه عرف تقسيم فرنسا وانجلترا لسورية وفلسطين سنة ١٩١٢ هـ وأنه سيشرح هذا في كتاب « البيان عما شهدته بالبيان » المراجع السابق ص ١٠٦ .

٢ - الشورى ، ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ م .

٣ - د . محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٣٧ .

٤ - شكيب أرسلان ، مقدمة ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦-١٧ .

٥ - من سورة آل عمران آية ١٠٣ .

بقوة هذا الاتحاد ، ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ، ولم يقف في وجوههم شيء .

ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ضعفت فيهم العقيدة التي كانت مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبية الموروثة عن الجاهلية ، فرجعوا يقتتلون على المضرة واليمنية في الإسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الإسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشيمًا ، ويدزهم عرجوناً قديماً^(١) .

فالأمير يؤمن أن العقيدة الإسلامية جعلت الإسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة^(٢) ، وبأن لا وحدة للعرب إلا بالإسلام ، وأن في الإبقاء على الأمة العربية مترابطة إبقاء على عمود الإسلام .

ولا يرى شكيب تعارضاً ولا تصادماً بين الوحدة العربية والأخوة الإسلامية ، بل هو فوق ذلك يرى أن الوحدة العربية تتضمن خيراً وقوة للشرقيين والمسلمين ، فيقول : « فأمّا اتحاد العرب والجامعة العربية فليس في ذلك إلا ما يزيد الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً قوة ومنعة »^(٣) .

وكان موقف الأمير شكيب أرسلان من فكرة إنشاء الجامعة العربية هو موقف الإسلاميين الذين بدأوا يعيدون التفكير بعد نهاية الحرب العالمية الأولى فيما آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية بعد هزيمة تركيا وزوال الخلافة الإسلامية هو الجامعة العربية^(٤) .

ولكن لم يكن تحول الأمير شكيب أرسلان من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية إنقلاباً ، بل كان نتيجة لتدرج منطقي فرضته أحداث عصره المتلاحقة ، فمع إلغاء الخلافة العثمانية انتهت الجامعة الإسلامية في وجهها السياسي ، وكان الأخطر من ذلك أن الشعوب الإسلامية بدت وكأنها أعرضت عن الجامعة الإسلامية .

١ - المرجع السابق .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مجلة الفتح ، ٩ رجب ١٣٥٠ هـ (عن أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ١٤٦) .

٤ - د . محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ص ٢١٢ .

وأخذت تبحث عن بديل آخر تظنه أكثر انسجاماً وتوافقاً مع شروط العصر ، وقد ساعد على نمو هذا الشعور ما يشته الدول الإستعمارية من الادعاء بأنها مستعدة لبث موضوع استقلال الشعوب الإسلامية فيما لو تخلت عن فكرة الجامعة الإسلامية ، وقد لاحظ شكيب أرسلان تصاعد هذا الاتجاه في الفكر السياسي فقال في جملة ما ذكره عن أسباب تخلي العالم الإسلامي عن معاونة الريف المغربي في جهاده ضد الأسبان : « فشوا الإعتقاد في تركيا ، ومصر ، وقسم من بلاد العرب ، بأن سياسة الإتحاد الإسلامي شيء مضر بالمسلمين ، حافظ لأوروبا على التآلب عليهم ، ومنعها استقلال ما يرجى استقلاله منهم حال كون الشعوب الإسلامية لو قامت بصانحة وطنية أو قومية خالية من صبغة الدين ، لما وجدت أوروبا بأساً من إعطائها أستقلالها ، فأما شعور أوروبا بكون الإسلام في وجهها متماسكا بعضه مع بعض ، فإنه مما يزيد تصميمها على سد كل طريق فرج في وجه أبنائه » (١) .

ولقد عمت هذه الظاهرة الخطيرة أرجاء العالم الإسلامي ، كما يلاحظ شكيب : « وقد زاد هذه العقيدة رواجاً في تركيا ، فشو الدعوة التورانية التي معناها أن الأتراك ينبغي أن يكونوا تركا في الأول ثم مسلمين في التالي ، بل يذهب الغلاة من التورانية إلى محاربة الإسلام بكل الوسائل ، لأجل قلع نفوذه لمحو الصبغة العربية من بين الأتراك » (٢) .

« كما زاد ذلك رواجاً بمصر مراعاة جانب القبط الذين رأى بعض كبار الزعماء أن إدماجهم الحقيقي في الكتلة الوطنية المصرية ، متوقف على نفوذ اليد من الجامعة الإسلامية » (٣) .

« ولا تخلو هذه النزعة من البلاد العربية أيضا ، لا سيما بين الحزب الذي انتفض على الأتراك أيام الحرب العامة ، والذي تحالف مع الانجليز وتمنى فوزهم في الحرب ،

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٣ ص ١٩٢-١٩٣ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

بحجة أن الذي ينبغي أن يكون نصب نظر العرب هو القومية العربية ، لا الجامعة الإسلامية ، وإن هذه الجامعة توجب نفور انكلترا التي كانت عند هذه الفئة مناط آمال العرب ... بخلاف ما لو كانت النزعة عربية قومية ، فإن انكلترا ترحب بها ترحيباً (١)» (١).

وهكذا انتشرت الدعوات القومية الانفصالية في أنحاء العالم الإسلامي ، ودفعت خط الجامعة الإسلامية إلى الظل لتتقدم عليه سياسة الإنفراد والنزعات العنصرية ، بينما ازداد شكيب أرسلان يقيناً بأن «التكتل» هو السبيل الوحيد للنجاة ، وأن تلك الدعوات القومية الانفصالية لابد أن تنتهي إلى القضاء على الشعوب الصغيرة أمام قوى الغرب الساحقة ، فرأى أنه «إذا كان هؤلاء لا يرون الاستمسك بجامعة إسلامية تشم منها رائحة الدين ، وتستوحش منها نزعاتهم العنصرية ، فليعدلوا على الأقل إلى جامعة وطنية شرقية تشمل جميع الشرقيين من أية أمة كانوا إذ كان من سنن البقاء أن يتحد الضعفاء في وجه القوى» (٢).

وفي ظل هذه الوقائع بدأ التحول في سياسة الأمير شكيب إلى الجامعة الشرقية «فليست الجامعة الإسلامية هي العروة الوحيدة التي يقدر أن يعتصموا بها ، بل الجامعة الشرقية إذا اتسقت على الوجه المطلوب في آسية كانت أوسع نطاقاً ولكن هذه الجامعة أيضاً توجب التضامن مع سائر الشرقيين من كل أمة ومذهب ، ومما لا مشاحة فيه أنه لا أمل باستقلال الشرق ما دام مفكك الأجزاء» (٣).

ولكن الأمير شكيب كان يخلط بين فكرة الجامعة الشرقية والجامعة الإسلامية ، وظهرت المحاولة الأولى لإنشاء رابطة من هذا النوع بعد الحرب العالمية الأولى عندما اشترك شكيب أرسلان مع جماعة من دعاة الجامعة الإسلامية السابقين - ومنهم طلعت

١ - المرجع السابق .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٤ ص ١٦٠ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج٤ ص ١٦٠ .

باشا ، الصدر الأعظم السابق ، المقيم في برلين ^(١) - في تشكيل النادي الشرقي في برلين ^(٢).

«وفي سنة ١٩٢٢م تألفت جمعية الرابطة الشرقية ، وحدد قانون الجمعية أغراضها بأنها «توثيق الروابط بين الأمم الشرقية بالتعاون الفكري بينها ، ودرس حضارة الشرق وما يناسب اقتباسه لنهضته من الحضارة الغربية ، وأن تتوصل إلى ذلك بالوسائل العلمية والاقتصادية ، وبث دعوتها باللسان والقلم ، وإيفاد بعض رجالها إلى البلاد الشرقية للتعارف والتآلف ، وإنشاء شعب فيها ، وعقد مؤتمرات دولية في جهات متعددة لتبادل الأفكار ... الخ» ، ومع أن الجمعية قد صرحت بأن غرضها غير سياسي ولا ديني ، وبأنها جامعة للشرقيين من كل الأديان ، فقد كان اتجاهها الإسلامي واضحا ، فهي ترسل مندوبا لمقابلة الخليفة في الأستانة ، وهي تبدأ نشاطها بالمساهمة في جمع التبرعات لترميم قبتي المسجد الأقصى والصخرة سنة ١٩٢٣م ، ثم تحيي في العام التالي ذكرى جمال الدين الأفغاني ، وتتدخل في محاولة التوسط بين الملك حسين ملك الحجاز وبين السعوديين لوقف القتال ، ثم تساعد بعد ذلك في جمع التبرعات لجرحي «الريفين» في ثورة مراكش ، ولضحايا الاحتلال الفرنسي في «دمشق» ، وللدفاع عن عرب فلسطين الذين قدموا للمحاكمة سنة ١٩٢٩م لاشتراكهم في الثورة ضد استمرار هجرة اليهود ، وهكذا يتبين من عرض أعمال هذه الجمعية التي ظلت قائمة إلى سنة ١٩٣١م ، أن معظم نشاطها قد اتجه إلى البلاد الإسلامية ، والعربية منها خاصة ^(٣).

وتلا ظهور (الرابطة الشرقية) ظهور (جمعية الشبان المسلمين) في آخر سنة ١٩٢٧م ، وقد أنصرف معظم نشاطها الإسلامي - كسابقتها - إلى العالم العربي ، فأبست لها فروع في فلسطين وفي سورية وفي العراق ^(٤).

١ - وذلك قبيل اغتياله في ١٥/٣/١٩٢١م .

٢ - د. محمد شفيق شيا ، شكيب أرسلان ، مقدمات الفكر السياسي ، ص ١٩٠ .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ج ٢ ص ١٢٨ .

٤ - المرجع السابق ص ١٢٩ .

وشكيب كان يعلق أملاً كبيراً على جمعيات الشبان المسلمين ، ويرى أن المسلمين نهضوا نهضة مذكورة بعد الحرب العالمية الأولى ، ونفضوا غبار الخمول عن نفوسهم ، ومن أحسن ما قاموا به إنشاء جمعيات الشبان المسلمين في مصر وفلسطين وسورية والعراق ^(١).

وعندما اجتمع الزعماء العرب حين اجتمعوا في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني سنة ١٩٢٢م ، قرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سورية وفلسطين ، ويسعى لتحرير هذين القطرين من براثن الإستعمار ، فيبسط قضيتهما أمام الرأي العالمي ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لاستقلالهما في جمعية الأمم بجينيف ، ولم يجدوا بداً من الاستنجاد بشكيب والإفادة من ثقافته ورجولته وإخلاصه ونضاله ، فانتخبوه سكرتيراً أول الوفد ، وأرسلوا إليه بريقة إلى برلين تدعوه إلى تأليف الوفد المذكور .

وسافر شكيب من برلين إلى جنيف سنة ١٩٢٥م للقيام بهذه المهمة المقدسة الجديدة بتكليف من قومه ^(٢) ، وتاريخ ١٥ سبتمبر يقدم إلى عصبة الأمم نداء مطولاً بالفرنسية ، يطالب فيه بسرعة الإعراف باستقلال سورية ولبنان وفلسطين وبالسultan القومي لهذه الأقطار الثلاثة ، ويحق هذه البلدان في أن يرتبط بعضها مع بعض بحلف بينها ، ويطالب بإلغاء نظام الإنتداب ، ويجلاء القوات الأجنبية عن سورية ولبنان وفلسطين ، وادخال سورية ولبنان الكبير في عصبة الأمم مع إعلان استقلالهما التام الناجز ... الخ ^(٣).

وهكذا نزل الأمير شكيب إلى ساحة العمل السياسي العربي ، وكما اتسمت الجامعة الإسلامية بالطابع النضالي المعادي للغزوة الأوروبية الصليبية السياسية ، كذلك اتسمت الفكرة العربية الصاعدة بمواجهة الاستعمار الأوروبي العسكري/السياسي/الاقتصادي .

١ - أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص ٢٢٨ .

٢ - د. سامي الدهان ، الأمير شكيب أرسلان حياته وآثاره ، ص ٨٤ .

٣ - شكيب أرسلان ، الشورى ، ١١/٥/١٩٢٥م .

ولنظرة شكيب وفراسته الصادقة في الأمور السياسية الخطيرة ، حتى أنه طالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث ^(١) ، أخذ يدعو العرب إلى الاتحاد وهو في أثناء تكراره لدعوته ينذر ويحذر من مستقبل الأمة العربية إن بقيت مفككة فيقول سنة ١٩٣١ م :

«الوقت مخيف جداً ، والمستقبل مظلم ، حالك الظلام ، والحرب الأوروبية مهما تأخرت فهي آتية لا ريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضعفاء ومن المعاوزات والمبادلات ما نشأ في الحرب الماضية .

فالبلدان العربية تحت الخطر ، بل الخطر الشديد ، إنني لأعلن العرب هذه الحقيقة من الآن ، وليس أمامهم لدرء الخطر إلا الاتحاد ظاهراً وباطناً ، أنه إذا نشبت حرب أوروبية تفلت كل من قيده ، وصار كل قوى يستعمل قواه ، والحق بعد ذلك للغالب ، وقد ينتهي الأمر بالاتفاق ، ولكن على ظهر الضعيف» ^(٢) .

ولقد كان شكيب فيما يقول الرواة أول من دعا إلى إنشاء (الجامعة العربية) عقب الحرب العالمية الأولى ^(٣) .

يقول الأستاذ عبد العزيز عزت عن شكيب : «هو أول من نادى عن عقيدة وإيمان بتكوين جامعة عربية تعمل على تضامن العرب كافة واسعادهم واستقلالهم ، وكان يقول ان شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تسوي بين المسلم وغير المسلم في بلاد الإسلام : (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) تجعل مواطنينا غير المسلمين تواقين للإستقلال معنا ، وتاريخ الدول الإسلامية أعظم شاهد على هذه المساواة في جميع الحقوق وتام الحرية» ^(٤) .

١ - يقول د. زكي علي في هذا المقام : «الأمير شكيب أرسلان كثيراً ما تكهن في الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى إذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقاً لتكهنه ، دليلاً على صواب حكمه ، ولا غرو أن هذا يعزى إلى سلامة فطرته وأصاله رأيه .. فوق مامتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية» شكيب أرسلان داعية العروبة (مرجع سابق) ص ٥٥ .

٢ - الفتح ، عدد ٤ شوال سنة ١٣٥٠ هـ .

٣ - أحمد الشريافي ، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، (مرجع سابق) ، ص ١٢٢ .

٤ - المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

غير أن (الجامعة العربية) - كما ذكرنا - لم تكن نقيضا للإسلام في فكر شكيب، أو بديلا عن (الجامعة الإسلامية) كمشروع سياسي، فالكثير من عناصر الجامعة الإسلامية ومكوناتها قد وجدت طريقها إلى فكرة العروبة، كما استلهمت (الجامعة الإسلامية) في ضرورة الوحدة، وحدة المشرقيين ووحدة المستضعفين، واستلهمت في ذلك كله طابع الجامعة الإسلامية النضالي المعادي والمقاوم للغزوة الغربية الاستعمارية، فالجامعة العربية اعتبرت في فكر الأمير أكثر توافقا مع وقائع المرحلة وتحدياتها، وأقرب نفعا في تأمين مستلزمات الوحدة والنضال.

«وهكذا لم يتردد عرب الجامعة الإسلامية، ولم يقعدهم انكفاء الإسلام السياسي، بل انخرط الكثير من قادتهم في معركة دفع الاستعمار الأوروبي عن البلاد العربية، وبات أكثرهم أعضاء نشطين في حركة المقاومة العربية الآخذة بالانتشار والتصاعد، ونكتفي بذكر بعض هؤلاء أمثال الحاج أمين الحسيني، علال الفاسي، أحمد زكي، ساطع الحصري وغيرهم، كان شكيب أرسلان بين أكثر هؤلاء نشاطاً واندفاعاً وإقداماً في خدمة القضية العربية الاستقلالية»^(١).

لقد رأى الأمير شكيب ومعه فريق من الإسلاميين أن قوة (الجامعة العربية) مستمدة من أنها جزء لا يتجزأ من (الجامعة الإسلامية)، ومن النماذج القوية التي تعبر عن هذا التصور الإسلامي للجامعة العربية ما نشر في صحيفة السياسة تحت عنوان «الوحدة العربية - وهل هي خيال؟».

«لم تكن الوحدة العربية فكرة اليوم، فهي ربيبة الدعوة المباركة للجامعة الإسلامية الكبرى، أو قل إنها جزء لا يتجزأ منها، بل لا نكون مغالين إذا اعتبرناها حجر الزاوية في بناء تلك الجامعة العتيقة التي نعتقد أن عناصر تكوينها من روحية وثقافية وحضارة وتقاليد هي العناصر نفسها، مصقولة بمبرد التطور، التي يقوم عليها نشدان الوحدة العربية»^(٢).

١ - د. محمد شفيق شيا، شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي، (مرجع سابق)، ص ١٩٥.

٢ - ملحق السياسة الأدبي عدد ٦ رجب ١٣٥١ - ٥ نوفمبر ١٩٣٢ لعبسى بندك - عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد محمد حسين، ج ٢، ص ١٨٠، (مرجع سابق).

وشكيب أرسلان يرى أن تكون الوحدة اتحاداً عسكرياً واقتصادياً وسياسياً يضمن البقاء للجميع حتى لا تقف مشكلة الاتحاد الإداري عقبة في طريق تنفيذ مشروعه ، فالوحدة العربية لا توجب « تمام اندماج مملكة بأخرى ، بل هي ممكنة بسهولة مع إبقاء كل من العراق وسوريا والمملكة العربية السعودية ممالك مستقلة بإدارتها الداخلية »^(١).

ويتحدث عن الاتحاد العربي بين الدول الأربع : « الشام والعراق ومملكة ابن سعود ومملكة اليمن » ثم يذكر أنه عند اتحاد جميع هذه البلدان يبلغ العرب الذين فيها من العدد ثلاثة وعشرين مليوناً من الأنفس » فإذا وجدت مصر في شرفها ثلاثة وعشرين مليوناً عربياً متحالفين تحالفاً عسكرياً ، اقتصادياً ، اجتماعياً ، متحدين كتلة واحدة في وجه كل مناوئ ، فلا نظن أنها تتردد في أن ترتبط مع هذه الأمة العربية الكبيرة ارتباطاً متيناً وثيقاً عسكرياً واقتصادياً ، وتصير عندنا بذلك (جبهة شرقية) هائلة يربو عدد أهلها على خمسة وأربعين مليون نسمة »^(٢).

ويلاحظ أنه استعمل كلمة « جبهة شرقية » مما يدل على تواصل الخط السياسي في فكره الذي بدأه من الجامعة الإسلامية إلى الرابطة الشرقية إلى الجامعة العربية استجابة لجملة الحقائق التاريخية والسياسية التي استجدت مع نهاية الحرب العالمية الأولى ، ودون أن يكون في ذلك التحول تراجعاً أو انقلاباً .

ويقرر الأمير شكيب في مواقف مختلفة الروابط التي تربط شعوب العربية من العقيدة الدينية واللغوية والجرار وتشابه الظروف الاجتماعية والحوادث التاريخية والمطامح السياسية وأهداف الرقي المدني والاقتصادي ، ويذهب بعد ذلك إلى تأكيد إيمانه بتحقيق تلك الوحدة العربية ، فيقول : « إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض في ذلك اللثام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وأن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها »^(٣).

١ - من محاضرة لشكيب عن (الوحدة العربية) في النادي العربي بدمشق يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ عن أحمد الشرياصي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام (مرجع سابق) ص ١١٥ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٦ ، ويلاحظ أنه كان يقول هذا في سنة ١٩٣٧ م .

٣ - شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، ص ٢٠٧ .

أما تصور الأمير للمستقبل السياسي للجامعة العربية فيقوم على أساس أن «العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية فلها عرق واحد ولسان واحد وأكثرية دين واحد ، وتاريخ واحد كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة وآمالا واحدة ، ولكن الذي فت في عضد هذه الأمة ، وأقصاها عن السير في مواكب المدنية والرقى هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبي لها» (١).

ويحدد الأمير شكيب دوره وهدفه من (الجامعة العربية) فيقول : «أنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جليلة وواضحة تمام الوضوح .
الأول هو الاتحاد ، والثاني هو التحرر ، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبعث» (٢).

ومع ذلك كله ، فلم يكن طريق الدعوة إلى (الجامعة العربية) ميسراً ولا ممهداً ، فقد كانت تعترضه عقبات كثيرة ، ولم يكن الاحتلال الأجنبي الذي قطع أوصال بلاد العرب هو شر هذه العقبات وأخطرها (٣) فهناك المسيحيون الذين تخوفوا من أن تتكشف الوحدة العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الإسلامي (٤) ، وقد يكون لهذا النفر من المسيحيين عذرهم فيما ذهبوا إليه ، فقد لقي هؤلاء من عنت الحكام ومن فساد الإدارة في أواخر الدولة العثمانية ما نفرهم من الارتباط بالحكم الإسلامي جملة (٥) ودعاهم إلى تفضيل الاستعمار الأوروبي (الأفريقي) أياً كان وبأية صورة احتل البلاد على ابن وطنهم ، وأحياناً على ابن جلدتهم المشارك لهم في السراء والضراء ، بحجة كونهم مختلفين مع ابن وطنهم في الدين .

وقد أوضح الأمير شكيب أرسلان عقم هذه السياسة وسقمها ، ومخالفتها للعقل

١ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٤٢ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - د. محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية (مرجع سابق) ص ١٣٦ .

٤ - صالح بن عبد الله العبود ، فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام ص ١٧٦ .

٥ - د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص ٢١٣ .

والكرامة والمصلحة في مقالة تحت عنوان «العروة جامعة كلية» نشرت في «عروة الاتحاد» في أيلول ١٩٤٠م ، ثم أعاد نشرها كاملة الشيخ أحمد الشرباصي (١) ، تحدث فيها الأمير شكيب عن الروابط التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين ، وأهمها رابطة الدم بالأصل ، ثم المصالح ، واللغة ، والوطن ، وضرب الأمثلة ، وبين كيف يرجع نصارى العرب إلى أصول عربية ، كما تحدث عن تأثير العقيدة الدينية ، وأنها لا تنفي رابطة الدم ، وبين أنه لا تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة العربية ، وأن الحروب الصليبية هي التي أوجدت العداوة بين المسلمين والمسيحيين ، ويشير إلى اتحاد المسلمين والأقباط في مصر ، ويجعل ذلك قدوة لسورية (٢) .

ولنا أن نقف هنا عند ثلاث مسائل أولاها شكيب كبير عنايته وتعد ذروة تصوره السياسي حول (الجامعة العربية) :

الأولى : يرى شكيب أن رابطة الدم من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ، وأن رابطة العقيدة الدينية لا تنفي رابطة الدم ، يقول الأمير شكيب : «إن العرب سواء كانوا مسلمين أو نصارى هم عرب ، لا يقدرون أن يتبرأوا من أصلهم ، ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم العربية ولا نزاع أن رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ، ولا نزاع أيضا أن رابطة العقيدة الدينية هي ذات تأثير عميق في اجتماع الشعوب وافتراقها ، ولكنها لا تنفي رابطة الدم ، ولا تمحوها من الوجود ، لا سيما إذا كانت رابطة الدم معززة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة» (٣) .

ثم يقرر الأمير حقيقة هامة ثبتت في وعيه السياسي بفعل التجربة الغنية التي خبرها أمدا طويلا : «لقد أثبتت التجربة أن رابطة الدين على أهميتها لم تكن هي كل شيء ، وأن رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما في جانبها مكان من البال لا يقل عنها» (٤) .

١ - في كتابه : «شكيب أرسلان داعية العربية والإسلام» .

٢ - شكيب أرسلان «العروة جامعة كلية» عن «داعية العربية والإسلام» (مرجع سابق) .

٣ - المرجع نفسه ص ١٦٢

٤ - المرجع نفسه

وينقل الأمير شكيب أرسلان عن الفيلسوف «رينان» الفرنسي : أن أقوى جامعة بين الشعوب هي «جامعة الإرادة» في الاجتماع ^(١) ، ثم يعلق شكيب بقوله : «ونحن أولاً نجد بين المسلمين والمسيحيين في الشرق لا جامعة واحدة بل جامعات كثيرة كلية ، منها وحدة الأصل ، وليس ذلك بالأمر الذي لا تبالي به الشعوب .. وزد على هذه وحدة المصلحة الراهنة المشتركة في الحياة الدنيا ، وهي لا تقل شأنًا عن الوجدتين السابقتين ^(٢) .

ويرد الأمير الاعتراض بأن في الشعوب العربية أنساباً متباينة وأقواماً لا يجري فيها الدم العربي الصراح ، فيقول : «وإن كنا نريد البحث والتدقيق فأية أمة في العالم تظهر أنها من أصل واحد اليوم لم تكن مركبة في الأصل من عناصر شتى ؟ ^(٣) .

فالنسب العرقي النقي وهم لا وجود له في أمم الأرض جميعاً ، ومثل هذا لا تخلو منه أمة ، حتى أن العرب أنفسهم - وإن كانوا جميعاً ساميين - ليسوا من أصل واحد ، فمنهم العرب البائدة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، ومنهم العرب العاربة ، وهم سلالة قحطان ، ومنهم العرب المستعربة ، وهم سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام ، ومع ذلك فإن العرب أمة واحدة ، لا يقدح في وحدة أصلها إلا شافيء أو حاسد أو مشاق معاند ^(٤) .

«فإن كان في الأمة العربية اليوم أقوام هم من أصل آرامي أو كنعاني أو نبطي ، أو غير ذلك ، فهذا لا يقدح في كونهم من جملة الأمة العربية الكبيرة البالغة سبعين مليون نسمة ، اتحدوا في الأصل السامي ، ثم اتحدوا في اللغة العربية ، وحسبك باللغة العربية عنواناً على العروبة» ^(٥) .

المسألة الثانية : وهي ما أشار إليها شكيب في النص السابق ، بقوله «اللغة

١ - المرجع نفسه

٢ - المرجع السابق

٣ - المرجع نفسه

٤ - المرجع نفسه

٥ - المرجع نفسه

عنوان على العروبة» ، فشكيب أرسلان يرى أن عامل وحدة اللغة سابق على غيره من العوامل ، وأن الأمة تتكون أساساً بهذا العامل مهما تعددت الأصول ، وتباعدت الأقاليم ، وتباينت التقاليد والعوائد .

وبهذا التصور اللغوي للأمة تصبح اللغة أهم عوامل التوحيد القومي « وليست اللغة العربية وحدها هي (البوتقة) التي ذابت فيها قبائل شتى فصيرتها جسماً وحداً وروحاً واحدة ، بل كل لغة من اللغات الكبرى كالانكليزية والألمانية والإفريقية والطيانية والروسية قد كانت (بوتقة) ذابت فيها عناصر مختلفة الأصل فصارت عنصراً واحداً»^(١).

ويشير الأمير إلى الترابط الوجداني الذي تحدثه اللغة في نفوس المجتمعين عليها حتى أنه قلما تطلع إنسان في لغة قوم إلا أحب أولئك القوم ، ولهذا نجد أكثر علماء العربية من النصارى - سواء كانت أصولهم عربية بحتة ، أم لم تكن - يحبون العرب ويفتخرون بالعروبة ، وقد كان من الفرس ومن الترك علماء بالعربية جعلهم اتقانهم للعربية من أنصار العروبة^(٢).

وهنا يلوح الأمير عاملاً هاماً من عوامل تفكك عرى (الجامعة الإسلامية) ، وهو إهمال تدريس اللغة العربية - بعد أن كانت عامل توحيد للشعوب الإسلامية - في تركيا «وغلِبَ على ناشئتها تعلم اللغات الأوروبية ، وإهمال اللغة العربية التي كانت لغة العلم عندهم من قبل»^(٣) ضعف ميل الأتراك إلى العرب ، بل انقلب إلى النفور ، وانتهى بالعداوة . وما نقوله عن الترك في هذا الباب نقدر أن نقوله عن الإيرانيين^(٤).

المسألة الثالثة :

وهي تأكيد الأمير شكيب على عدم وجود تعارض بين الوحدة الإسلامية والوحدة

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

٣ - وفي هذا يقول جمال الدين الأفغاني : « ... أما الأتراك فقد أهلوا أمراً عظيماً وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمه الله عليه وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهي قبول اللسان العربي لسان الدولة » محمد باشا المخزومي ، خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص ٨٨ .

٤ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

العربية ، هي مسألة دقيقة ناقشها الأمير شكيب أرسلان بعناية المفكر الجريص على التوفيق بين أبناء الوطن الواحد ، وقد اختلف معه في بعض الرأي لكننا نتفق معه في الإطار العام وفي الغاية والهدف .

بداية يقرر شكيب أرسلان أن الدين الإسلامي جعل العقيدة الإسلامية فوق كل شيء ، ونهى الذين آمنوا عن أن يتولوا الذين لم يؤمنوا ، ولو كان هؤلاء من ذوي قريابهم ، أو كانوا أصولهم أو فروعهم (١) .

ويستشهد بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترقتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٢)

ثم يرد الأمير شكيب أرسلان على المعارضين لفكرة الربط بين العروبة والإسلام ظناً منهم أن في الجمع بينهما جمع بين نقيضين ، فإذا كانت « الوحدة الإسلامية هي المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب واللغة والحوار والمصالح المشتركة ، فأيّة فائدة إذن أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم ؟ » (٣) ويرى شكيب أن الجواب عن ذلك سهل إلى الغاية ، وذلك من وجوه :

الأول : أنه إذا كان القرآن جعل الرابطة الإسلامية فوق كل شيء ، فإنه جعل الحق في المعاملات فوق الرابطة الإسلامية حتى أنه سوى في الحق بين المسلمين وغير المسلمين ، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سبباً لحرمان الأعداء من حقوقهم .

فقال تعالى في سورة المائدة : « ولا يجرمكم شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله

١ - شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (مرجع سابق) ص ١٧٤ .

٢ - سورة التوبة آية ٢٣-٢٤ .

٣ - المرجع السابق ص ١٧٥ .

إن الله شديد العقاب» آية : ٢

وقال تعالى في السورة نفسها : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » آية : ٨ (١).

وهكذا يقوم الأمير بإثبات الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية وهي إقامة (العدل) بين الناس ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وأمر بالعدل ولو مع العدو ، وجعل العدل في الحكم وفي القول مفروضاً في كتاب الله فانقطع بذلك خوف غير المسلمين من الاجتماع مع المسلمين في دولة إسلامية تحكم بشريعة الإسلام .

«فإذا كان الشرع الإسلامي لا يبيع لمسلم أن يجور على مسيحي ، أو على أي كان من غير المسلمين ، ولو كان عدوا له وللإسلام عموماً ، وكان يجب أن يوفر لهذا العدو حقه غير منقوص ، فأى مكان بعد هذا للخوف من الاجتماع مع المسلم في حكومة واحدة ؟ وأي محذور من جعل القرآن رابطة الدين فوق كل رابطة ، وهي لا تقدر أن تبطل حقاً ، ولا أن تمحق باطلاً في معاملات المسلمين مع غير المسلمين ؟ » (٢).

أما الوجه الثاني الذي يدعو إلى ترابط المسلمين بالمسيحيين في داخل (الجماعة العربية) فهو أن الشرع الإسلامي قد فرق بين المشركين وبين أهل الكتاب ، الذين منهم اليهود والنصارى ، فإن هؤلاء بالنظر إلى عقيدتهم بالخالق تعالى ينظر إليهم الإسلام بغير النظر الذي ينظر به إلى الملحدين والمعتولين والمشركين (٣) ، فيقول الله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٤).

١ - المرجع نفسه .

٢ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

٣ - المرجع نفسه .

٤ - سورة البائدة آية ٦٩ .

ويعتقد الأمير شكيب أن الله تعالى جعل باب الرحمة مفتوحاً لأهل الكتاب ، ويستشهد على اعتقاده هذا بقول الله تعالى في آخر سورة المائدة على لسان سيدنا عيسى : ^(١) « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ^(٢).

وهناك وجه ثالث لتقارب المسيحيين مع المسلمين ، يرى الأمير أن من لم يتأمل القرآن العظيم لا ينتبه إليه ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل اليهود والمشركون أعداء للمسلمين من دون النصارى ، وقد ورد هذا بالنص الصريح ^(٣) في قول الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ^(٤).

ويؤكد الأمير شكيب أن المسلمين في صدر الإسلام وما بعده كانوا لا يعتبرون النصارى أعداء لهم ، وكان ذلك عقيدة عندهم مدة قرون متعددة ، « ولكن العداوة بين المسلمين والمسيحيين لم تبدأ في الشرق إلا بعد أن فكر الغرب في الاستيلاء على الشرق ، وزحفت الأمم الأوروبية كلها على المشرق ، تريد القضاء على دولة الإسلام ، بحجة استنقاذ بيت المقدس .. ولم تزل أوروبية تنفخ في هذا النفير من ذلك الوقت وكلما هدأت حركة العداة بين المسيحيين والمسلمين في الشرق جاءت الدول الأوروبية فأشعلت ناراها » ^(٥).

ما يفرق إذاً بين العربي المسلم والعربي المسيحي إنما هي إحن داخلية وغريبة

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ص ١٧٦ .

٢ - سورة المائدة آية ١١٧-١١٨ .

٣ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

٤ - سورة المائدة ، آية ٨٢-٨٣ .

٥ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ، ص ١٧٩-١٨٣ .

تعود إلى الإرث الصليبي قديما والمد الأوروبي الاستعماري الجديد^(١)، ولكن (الجامعة العربية) النازمة لشمـل المسلمين والمسيحيين من العرب «هي أشد قوة وأحـصـف مـريرة بالنظر إلى وحدة الدم واللغة والمصلحة من روابط سائر الأمم الدامجة بعضها مع بعض»^(٢)، وهي أيضا ثابتة بالشرعة الإسلامية كما تقدم .

والأمير شكيـب أرسلان لا يرى في اختلاف العقائد الدينية سببا لاختلاف العقائد السياسية، وبناء على ذلك فالعروية تمثل في فكر الأمير كتلة سياسية في مجال الصراع العالمي الذي لم يعد فيه مكان للكتل الصغيرة لضعف إمكانياتها، ولعجزها عن الدفاع عن نفسها أمام الطامعين، وعليها في سبيل هدفها أن تتغلب على أسباب الفرقة بكل أشكالها سواء بين أبناء الأديان المختلفة أو بين أبناء الدين الواحد، يقول شكيـب :

«ولنا الأمل في أن تكون العروية سواء كانت من جهة الدم أو من جهة اللغة هي الجامعة الكلية، لا بين المسلم والمسيحي فقط، بل بين أبناء الفرق الإسلامية من سنة وشيعة ودروز وعلويين وأسماعيليين، وبين الفرق المسيحية بعضها من بعض من أتباع الكنيسة الشرقية وأتباع الكنيسة الغربية»^(٣).

ولكن تبقي العروية في فكر شكيـب أرسلان (عروية إسلامية)، فظروف نشأتها في ظل دولة إسلامية جامعة للشمل تختلف عن ظروفها مع تفرق الشمـل واختلاف الكلمة، فإذا كانت هذه الدعوة قد فتت بالأمس في عضد (الجامعة الإسلامية)، فهي في هذه المرحلة - إذا صححت مسيرتها - الخطوة الأولى في الطريق إلى هذه الجامعة^(٤).

«فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقيق وحدة جامعة بحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم ببعض من ناحية، والتي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من

١ - د. محمد شفيق شيا، شكيـب أرسلان مقدمات الفكر السياسي، (مرجع سابق)، ص ٢١٩.

٢ - شكيـب أرسلان، (العروية جامعة كلية)، داعية العروية والاسلام (مرجع سابق)، ص ١٨٦.

٣ - شكيـب أرسلان، المرجع السابق، ص ١٨٧.

٤ - د. محمد محمد حسين، الاسلام والحضارة الغربية (مرجع سابق) ص ٢٢٠-٢٢١.

ناحية أخرى ، وبحكم تجمع دولهم وتلاصقها واتفاق العادات أو تقاربها على الأقل مهيوون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تشع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام»^(١).

(الجامعة العربية) هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو (جامعة إسلامية) لا سبيل إليها الآن^(٢).

لذلك فرح شكيب أرسلان لما تألفت (الجامعة العربية) وحياتها ، وتمنى لها التوفيق ، ومن أقواله الأخيرة : «إن الجامعة لن تستطيع تنفيذ مبادئها والاطمئنان إلى مستقبلها دون أن يكون لها جيش مرهوب الجانب تستطيع أن تشتبك فيه جميع دول (الجامعة العربية)»^(٣).

وينقل «محمد علي الطاهر» مدى فرح الأمير شكيب وقد عاد إلى وطنه سنة ١٩٤٦م بعدما تحقق حلمه بتأسيس الجامعة العربية^(٤)، كما ينقل تابين الشيخ بشاره الخوري للأمير بعيد وفاته في بيروت «... فرحت للبنان وسورية ولجميع البلاد العربية إذ وجدت لها متآخية في جامعة سعت لها طول حياتك ، فتحققت بها أمانيك ومسايعك»^(٥).

وأحسن ما قيل في تقدير سعي الأمير شكيب أرسلان وجهاده في سبيل وحدة العرب وجمع كلمتهم ، ما كتبه رشيد رضا عنه عندما لبي شكيب أرسلان دعوة الحاج أمين الحسيني لإصلاح ذات البين بين إمام اليمن وابن سعود ولوقف الحرب اليمنية الحجازية فقال رشيد رضا : «... واستجاب له (الحاج أمين الحسيني مفتي القدس) من أوروبا أكبر كتاب الأمة العربية وأمير البيان فيها الداعي إلى وحدتها المحامي عن حقيقتها المدافع عن ملتها ورئيس الوفد السوري الفلسطيني في جنيف ، مشابة سياسة

٢/١ - المرجع نفسه .

٣ - د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، ص ٩٩ (مرجع سابق) .

٤ - أصبحت (الجامعة العربية) حقيقة واقعة في ٢٢ مارس ١٩٤٥م حين اشترك في توقيع ميثاقها سبع دول عربية ، هي : مصر والمملكة العربية السعودية وسورية ولبنان وشرق الأردن والعراق واليمن ، (الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ١٨٩) .

٥ - محمد علي الطاهر ، ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٣٤ .

الأمم كلها . الأمير شكيب أرسلان»^(١).

- تعليق حول تحول الأمير من (الجامعة الإسلامية) إلى (الجامعة العربية) :

لم يجانب الأمير شكيب أرسلان الصواب عندما توجه بكل طاقته نحو (الجامعة العربية) . فما العرب إلا مسلمون «بل هم جرثومة الإسلام وأصله الأول وقلبه النابض ، فإذا عجزنا عن تقديم جامعتهم وحملها على الإسلام ، فنحن أعجز عن تقويم جامعة المسلمين وحملها عليه»^(٢) ، وإذا كان «فريق من الإسلاميين ظلوا متأثرين بالظروف التي أحاطت نشأة الجامعة العربية حين كانت فكرة ومبدأ ، وبعد أن أصبحت مؤسسة سياسية ، وظلت في تقديرهم فرعاً من الاتجاه القومي الوافد على بلاد المسلمين من أوروبا ، والذي كان سبباً في تمزق الجامعة الإسلامية»^(٣) ، فقد أدى إعراضهم عنها إلى ترك الميدان مفتوحاً «لتسلل زعامات غير إسلامية أقحمت عليها مذاهب ومناهج في السياسة والاقتصاد تناقض الإسلام»^(٤).

١ - شكيب أرسلان ، السيد رشيد رضا ، أو إخوان أربعين عاماً ، ص ١٨٩ .

٢/٣ - د . محمد محمد حسين ، أزمة العصر ، ص ٥٤-٥٥ .

آراء الأمير شبيب أرسلان في (التربية)

آراء الأمير شكيب أرسلان في

(التربية)

إن الضعف والاضمحلال اللذين أصابا الدولة العثمانية (دولة الخلافة) لم يصدرا عن الخلافة نفسها - كما يقول الذين لا يدققون في أسرار الأمور أو الذين في قلوبهم مرض - وإنما كان مبعثهما - في رأي شكيب - حال المسلمين في العالم الإسلامي ، « فقد كان العالم الإسلامي قبل الحرب العامة معتمدا على الدولة العثمانية يراها كل شيء ، ويطلب منها كل شيء ويظن نفسه مستريحا بوجودها » ^(١) وكان المسلم لا يفكر ولا يريد أن يفكر في مسائل الإسلام العامة اعتقاداً منه بأن هناك دولة كبرى وخلافة هي المرجع لكل هذا وإنها ناظرة إلى كل هذا .

« وصار هذا الإعتقاد وسيلة للمسلم أن يكسل ويهمل ويقول لنفسه : مالي وللإهتمام بما يهتم به من هو أولى وأقدر مني ؟ وربما قال : بما لا يعنيني » ^(٢) .

« فهذا الاعتماد أضر الخلافة وأضر العالم الإسلامي نفسه ، أضر الخلافة لأنه حملها كل شيء من الفلبين إلى المغرب وألقى كل المهام عليها فعبزت ورزحت تحت الحمل حتى عجزت عن حفظ ما هو بيدها فضلا عن البعيد .

وأضر نفسه لأنه بتخيل أن كل المهام قائمة بها الخلافة في استانبول أهمل كل سعي وكل عمل وصار ينظر إلى نفسه كقاصر ليس له أن يهتم بشيء مع وجود وليه فصارت الدولة ضعيفة وصار العالم الإسلامي ضعيفا وصار ضعف كل منهما يزيد ضعف الآخر » ^(٣) .

وهكذا يلقي الأمير شكيب بتبعة ضياع الخلافة على عاتق المسلمين أنفسهم ، وبالتالي فقدانهم لكيانهم السياسي ، فماذا تفعل الدولة إذا كان أفرادها لا يقومون بواجبهم في نصرتها والعمل على سلامتها ورقيقها « فصارت الحال أشبه بجسم جميع

١٩٢٢/٤ - رسالة مطولة أرسلها « شكيب أرسلان » من لوزان إلى « أكرم زعيترو » سنة ١٩٣١م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان « ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان » بقلم أكرم زعيترو بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٦/٣/٢٢ وما بعده .

أعضائه شلاء أو مصابة ، فالرأس مهما كان مفكراً لا يستطيع مع ضعف الجسم كله شيئاً .

«والحقيقة لو كانت أقسام العالم الإسلامي كلها ملأى حياة لكانت الدولة العثمانية أقوى دول الأرض إذ كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليون آدمي ، كل واحد منهم قائم بوظيفته في نصرتها ولكنها كانت رأساً لثلاثمائة وخمسين مليوناً منهم ٣٠٠ مليون تقريباً في حكم القاصرين ، فماذا يفيد القاصرون مهما كثروا» (١).

والآن وبعد إلغاء الخلافة وانفراط عقد الأمة الإسلامية ، يحدد الأمير شكيب مذهبه في الطريق الواجب اتباعها لتحرير الإسلام وإنهاضه ، فيدعو المفكرين والمهتمين بمستقبل الإسلام إلى الإنعاط بعبير التاريخ ودروس الأحداث الجارية ، وقد أثبتت الوقائع ويشهد التاريخ بأن الفرد المسلم هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الدولة الإسلامية ، «فالآن يجب علينا أن نؤسس من تحت .. يجب أن نربي الفرد الإسلامي فنخرجه فرداً عاملاً قائماً بالواجب عليه سواء كان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو حاكماً أو معلماً أو مصلحاً ... الخ ومن مجموع الأفراد القائمين بما عليهم حق القيام يتألف البلد الزاهر الراقي .

ومن مجموع البلدان الزاهرة الراقية تتألف القوة المهيبة التي لا تحصل على القوة إلا حصلت على الاستقلال لأن هذين لازم وملزوم» (٢).

«ومن مجموع الأقطار القوية المهيبة يتكون حينئذ رأس هو الخلافة إذا استقلت به إحدى دول الإسلام كانت رأسها تطاطى له الرؤوس» (٣).

هذا هو مذهب الأمير شكيب في النهضة الإسلامية ، ويقوم على تربية الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، وهذا لا يتحقق إلا بالمجاهدة والتضحية واستذكار سير الشعوب التي جاهدت وضحت فنالت حريتها واستقلالها :

١ - رسالة مطولة أرسلها «شكيب أرسلان» من لوزان إلى «أكرم زعيتر» سنة ١٩٣١م نشرت في سلسلة مقالات بعنوان «ذكريات مع الأمير شكيب أرسلان» بقلم أكرم زعيتر بجريدة (الشرق الأوسط) ١٩٨٦/٣/٢٢م وما بعده.

«نحن أمة كسائر الأمم ، بشر كسائر البشر ، نتبع طرق الأمم التي كانت فقدت استقلالها ثم استقلت .. طريقهم أنهم بعد أن انقرضت حكوماتهم ودولهم عمدوا إلى الجمعيات ، جمعيات منها سرية ومنها علنية قانونية ، فهذه قامت لهم مقام دولهم ، قام الفكر مقام السلطة ، قامت السلطة الشعبية مقام السلطة الأجنبية الحاكمة ، ولم تزل تتقوى حتى تناولت السلطة القانونية باسم الوطن» (١).

يعتقد شكيب أن هذا النسيج التحتي من الخلايا هو عصب نهوض الأمة وبمقدار ما تشد هذه الأعصاب وتتقوى وتزداد عددا وصلابة تقترب ساعة الخلاص .

يقول الأمير : «إن الجمعيات وهي ما يسميه الترك التشكيلات هي طريق الخلاص ، جمعيات خفية ، جمعيات قانونية ، لجان ، شركات ، نقابات ، كل هذه التشكيلات سواء كانت خيرية أو علمية أو اجتماعية أو تجارية أو صناعية أو زراعية قوى للوطن ومنايع حياة له ، وهذه الجمعيات لها صناديق ، وهذه الصناديق وجودها يعلم البذل أو ما يعبر عنه بالتضحية ، فإذا صارت في الوطن الواحد عدة جمعيات وشركات ولجان وكل واحدة منها لها صندوق ملآن صارت في الوطن عدة قوى أو عدة أجنحة تنهض به» (٢).

ويرى شكيب أن تعدد هذه التشكيلات في داخل الوطن الواحد تجعله أشبه بعضو ملآن دما في جسم الإسلام ، فإذا كان كل من الأعضاء ملآن حياة تألف منها جسم نشيط وثيق قوي سريع ناهض ، جميع ما فيه يؤدي ما عليه تماما فنال مراده في هذه الحياة .

«وهي الطريقة الإقلينية أي أن كل إقليم يبدأ بنفسه وبوطد مداميك حائظه ، فإذا رأى نفسه تقوى وارتأش وصار قادرا على النهوض التفت إلى جاره ومد يده إليه» .

ويؤكد الأمير شكيب أن القرآن العظيم هو أقوى رابطة تجمع قلوب المسلمين في كافة أقطار العالم الإسلامي : «وأما الجامعة بين هذه الأقطار فهي طبيعية حاضرة أقرب

من جبل الوريد وما دام القرآن موجودا لا نخشى عليها» (١).

ويقول شكيب مؤيدا ثقته في اتجاهه السياسي : «فالتشكيلات هي قوة كل أمة فقدت حكومتها وكيانها السياسي ، وهي الزعيمة مع الثبات والعزم واتقان العمل وروح التضحية بإعادة ذلك الكيان السياسي» (٢).

ويرى شكيب أن هذا الطريق «الشعبي» هو أجدى نفعا وأكثر فائدة من الاجتماعات والمؤتمرات «الرسمية» العظيمة الصدى والقليلة النفع ، فيضيف شكيب : «هذا هو مذهبي في النهضة الإسلامية ، ولذلك تأتيني كتب كثيرة من المغرب والجاوي ومصر وسوريا والعراق وفلسطين مقترحا أصحابها عقد مؤتمر إسلامي وما أشبه ذلك ويكون جوابي دائما : يجب أن نؤسس من تحت ، يجب أن نربي الفرد ثم البلد ثم القطر ثم العالم الإسلامي ، ويقولون إن تعليم الأفراد وترقية الأقطار هما مما يأخذ وقتا طويلا ونحن في حاجة إلى العجلة ، وأجواب : إن (التعليم) بطبيعة الحال سائر مع (التشكيلات) التي ذكرناها ، إذ لا خير في التشكيلات إن لم يكن أول شيء تبدأ به هو التعليم والتهديب» (٣).

هو ذا رأي شكيب في النهوض الإسلامي ، وفي سبيل تحقيق حرية العالم الإسلامي وتقدمه ورقيه ، ومن نصوص شكيب السابقة ، وفي غيرها من آثاره المطبوعة يبدو بوضوح حرص الأمير على حسن تربية الفرد المسلم وتعليمه ليكون عضوا نافعا لدينه وأمته ، إذ بدون ذلك لا نفع يرجى ، ولا فلاح لأمة .

والأساس الذي يراه الأمير لازما في بناء الفرد المسلم هو (القرآن الكريم) ، «لأن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به ، إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الأمم ، وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة» (٤).

٣/٢/١ - المصدر السابق وفي رواية لمحمد شفيق شيا في كتاب (شكيب أرسلان : مقدمات الفكر السياسي ص ١٨١) يضيف شكيب : «وأما أن نعقد مؤتمرا مجموعا من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة وهم لا يقدر أن ينفذوا قرارا فما فائدة ذلك ؟ أنريدنا أن نجتمع أصفارا ! » .

٤ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٨ :

وما القوة المادية مهما دقت أو غلظت إلا تبع للقوة المعنوية ، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة إلى الروح ، وكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الإسلامية الباهرة هو مراس العرب للقتال أو حبهم للغزو ، أو ملل الأمم المجاورة من حكامها ، كل هذا تضييع للمعنى الحقيقي ، وزيف عن شاكلة الصواب .

« وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل من عند الله خارق للعادة ، بقوة معنوية أحدثها في النفوس ، خارقة للعادة »^(١).

وشكيب أرسلان يدرك أن الله هياً للمسلمين بالقرآن الكريم كتاباً ما فرط فيه من شيء ، وأمرهم أن يتدبروه وأن يعملوا به ، وبهذا التدبر وهذا العمل حقق المسلمون في صدر الإسلام ما حققوه من فتح ومجد وقوة ، لذلك حذر طلاب النهضة القومية دون الدينية من أن يولوا الدين ظهورهم ، وبين أن دعوتهم ستفضي إلى الإلحاد والإباحية ولن تبعث نهضة أو تقدما كما يزعمون ، يقول شكيب :

« يقول بعض الناس مألنا وللرجوع إلى القرآن في ابتعاث هم المسلمين إلى التعليم فإن النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوروبا ، ونجيبهم أن المقصود هو النهضة .. ولكننا نخشى أن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا إلى الإلحاد والإباحية وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوت نفعه ، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا في الشرق أن نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ »^(٢).

ويوضح شكيب : فهم الأوروبيين للفظتي (الوطن) و (القوم) فهما عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافيا وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معا ، وهذا الذي يناضلون من أجله ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله^(٣) مما يدل على النقل المحرف لدى دعاة (القومية) و (الوطنية) من المسلمين .

١ - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ج ١ ص ٢٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، ص ١٣٨-١٣٩ .

٣ - المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

ويقرر الأمير أن الأزمة الحقيقية الحاضرة في أمة الإسلام هي (أزمة التعليم) ،
 فطريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الإسلامية والمسلمون في عصره ستكون
 نتيجتها أشد ويلات على المسلمين من الاستعمار ومن الحروب الصليبية ، ومن الغارات
 الاقتصادية ، ومن كل مصيبة وداھية ^(١) .

وهذه الطريقة هي أن ينشأ الفتى المسلم دون عقيدة من الصغر تنقش في لوح
 صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن الكريم ، ولا من قواعد العربية ، فكيف
 نطلب منه بعد ذلك أن يكون مسلماً ^(٢) .

كما ينبه الأمير إلى خطر التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ، ويرى أنها ستفضي
 حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلوا
 الحضارة الالهية التي جاء بها الإسلام ، لذلك « يشدد حملته على أولئك الذين يرسلون
 أولادهم إلى أوروبا للتعليم فيها ، دون تزود من الدين والعقيدة ، ويرى أن فوضى التعليم
 خطر عظيم ، وأن عدم تجانسه سيؤدي في العالم الاسلامي إلى فتن وشذائد بين أبنائه
 أنفسهم أشد خطراً من غارات الأفرنج واحتلاتهم التي لا بد أن يتقلص ظلها بالصبر
 والثبات واغتنام الأوقات ^(٣) .

ولكن الإحتجاج على تعليم المسلمين تعليماً غريباً لا يعني أبداً أن الإسلام
 يعارض (العلم) في ذاته ، فشكيب أرسلان لا يعتقد أن هناك علماً أوروبياً وعلماً شرقياً
 ، فالعلم مشاع بين البشر أجمعين ^(٤) ، ولكن الأمير يؤمن أن النهضة العلمية للأمة لا بد
 أن تكون في إطار لغتها ، وتاريخها ، وعقيدتها ، وشخصياتها ، ولذلك يقول :
 « التجارب من قديم الدهر أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا
 إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها » ^(٥) ، وشكيب ينصح
 المغاربة أن يقتبسوا العلوم الأوروبية مع المحافظة على معتقداتهم وشخصاتهم ،

٢/١ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ إبريل ١٩٣٠ م .

٣ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧/٤/١٩٣٠ م .

٤ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ .

٥ - شكيب أرسلان ، الفتح عدد ٢٤ ربيع الأول ١٣٥١ هـ .

ويضرب المثل باليابانيين الذين أخذوا عن الغرب ما نفعهم ، وحافظوا على شخصيتهم ودينهم ، ويضيف الأمير « .. والتفرنج في نظري شر الأشياء ، والأمم مهما كانت فمن شأنها أن تحافظ على كيائها ، فكيف بأمة عظيمة لها تاريخ مجيد ؟ »^(١).

ويرى شكيب أن حث (القرآن) على (العلم) هو خير حافز للمسلمين على سبق الأمم في الرقي ، فما من دين أبدا حث على التقدم العلمي كما حث عليه الاسلام ، « فالعالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي والحق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزما ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزا على العلم والفن خيرا من القرآن الذي فيه »^(٢).

(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)^(٣).

ويستشهد الأمير شكيب بآيات قرآنية كثيرة تبين حرص الإسلام على العلم وإجلال العلماء ، ثم يرد على زعم أعداء الإسلام ومنهم (المسيو سيكار) أحد مستخدمي فرنسا في الرباط ، وكان قد ألف كتاباً في الطعن في الاسلام ، وكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» : أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم^(٤).

ويرد الأمير شكيب هذا الافتراء بالدعوة إلى تأمل آيات (القرآن الكريم) المتعلقة (بالعلم والحكمة) وغيرها مما يحث على السير في الأرض والنظر والتفكير ، فنسعمل «أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه متناولا كل شيء ، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة»^(٥).

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ص ١٣٣ .

٣ - الزمر : ٩ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٣٦ .

٥ - المرجع السابق .

وشكيب يرى أن الحديث النبوي الشهير : « أطلبوا العلم ولو في الصين » ^(١) يعزز القول بأن المراد بالعلم هو العلم على إطلاقه « فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم (سيكار) ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على طلبه ولو في الصين إذ أن أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعا للعلم الديني كما لا يخفى » ^(٢).

ويضيف شكيب أن في بعض آيات القرآن الكريم من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي : « أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام » ^(٣).

ويمثل الأمير لذلك بقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به من ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر : ٢٧-٢٨ .

ويرى الأمير أن المراد بالعلماء في هذه الآية الكريمة « العلماء بما ذكر في الآية من النبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام » ^(٤).

وهكذا يتضح لدينا أن إهمال المسلمين ، وليس النقص في التعاليم الإسلامية ، هو الذي سبب الإنحلال الحاضر ، وأن الإسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم ، وأن أوروبا « مع تبهرها في العلوم الطبيعية والمادية لا تزال تبني ثقافتها على أساس ديانة مضى عليها أكثر من تسعة عشر قرناً ، وعلى لغات وآداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرناً ، وهي مع ولوعها بالجديد ، لم تنس الاحتفاظ بذلك القديم » ^(٥).

١ - تتمتع « فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس ، وله طرق يقوي بعضها بعضاً . (رشيد رضا) (المرجع السابق) هامش

٢ - المرجع السابق .

٣ - المرجع السابق .

٤ - المرجع السابق ص ١٣٧ .

٥ - شكيب أرسلان ، الفتح ١٧ أبريل ١٩٣٠ م .

من هذا ينتقل الأمير شكيب أرسلان إلى استخلاص العبرة التي يحرص عليها ويسعى نحوها :

«إذن المدنية تجتمع مع الدين ... ، إذن اللادينية ليست شرطا من شروط الحضارة الأوروبية ... ، إذن الحكومات الشرقية التي تزعم أنها إنما تقطع صلتها بالدين الإسلامي إقتداءً بحكومات أوروية التي بزعمها قطعت صلتها بالدين المسيحي إنما هي حكومات تضلل أفكار السذج من رعيته ، وتموه عليهم ، وتقصد حربا وتوري بغيرها .. إذن هذه الحكومات كاذبة فيما تزعم ، وإذن ناشرو دعايتها في مصر والبلاد العربية كاذبون أيضا ، إذن على الأمة المصرية وعلى الأمة العربية جمعا أن ينتبهوا للحقائق» (١).

وأخيراً يرى (شكيب أرسلان) أن العلم الأعلى الذي يجب أن يتعلمه المسلمون لينهضوا ويتقدموا ويشرقوا كما ترقى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مرارا عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (بالتضحية) .

«إن (التضحية) أو الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ، ودنت منها جميع القنوط والمجاني» (٢).

أما العلوم الطبيعية والرياضية في أشكالها الخالصة والتجريبية ، والتي يعتقد كثير من المسلمين أنها مفتاح الرقي والتقدم ، فيرى شكيب أنها «فروع لا أصول ، وأنها نتائج لا مقدمات» (٣).

وهذه نظرة دقيقة سبق بها الأمير عصره الذي كان من أبرز سماته إنبهار المسلمين بالتقدم العلمي الغربي ، واعتقاد أكثرهم أن سبيل النهضة منحصر في تقليد نظام التعليم الغربي ، ولكن إذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا

١ - شكيب أرسلان ، الفتح ٩ فبراير ١٩٢٨ م .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٦٣ .

٣ - المرجع السابق .

يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما ،
إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا
الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة ^(١).

ويضيف شكيب : « فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم
عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن
يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم ، بل هم أولى بذلك وأحرى » ^(٢).

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) ^(٣)

١ - محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٧٨ .

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٦٤ .

٣ - سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

obeikandi.com

بعث (مدنية الإسلام) في مواجهة (الحضارة الغربية)

إن نجاح الحضارة الغربية في ميادين الإقتصاد والسياسة والعلم التطبيقي نجاحا عالميا جعل الحركة الاستعمارية في العالم تحاول أن تستثمره في فرض الوصاية على الشعوب المختلفة باسم (المثل الحضاري الأعلى) ^(١) ، وقد ساعد على ذلك ما وقع فيه بعض المفكرين من وهم فانطلقوا الى القول بوحدة الحضارة الإنسانية ، بما تتضمنه هذه الفكرة من افتراض نهر واحد لها ، وهو الغرب ، والزعم بأن جميع ما عبده ليس إلا روافد له ، أو هي مياه ضائعة في رمال الصحراء ^(٢) .

وخيل لكثير من المسلمين ممن تأثروا بحملات المستشرقين والمبشرين الأوروبيين ، أن الحضارة الغربية - في أحدها صورها المتحققة أو المنشودة - هي المثل الأعلى للإجتماع الإنساني ، فنظروا إلى (المدنية الغربية) على أنها القوة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكدة ، فأدخلوا بذلك الضعف على ثقتهم بأنفسهم ، ودعموا بطريق غير مباشر ذلك الزعم الغربي القائل بأن الإسلام «جهد ضائع» ^(٣) .

لذلك أدرك (شكيب أرسلان) أن العالم الاسلامي يحتاج إلى مراجعة ذاته ، لمزيد من معرفة النفس ، والعثور على روحه التاريخية الخاصة في مثل هذا الصراع الثقافي والسياسي الذي يواجهه ، ومثل هذه المعرفة بتاريخ حضارتنا شرط جوهري لانطلاق هذه الحضارة فاعلة في التاريخ .

ولهذا عني شكيب بتبيان أن الإسلام لم يقف عند حد الفتوحات أو إقامة السلطان الواسع ، بل هو بدل في الوقائع والنفوس والتاريخ فأسهم في بناء (مدنية إسلامية) خاصة به حقيقية ، سامية ، راقية ، مبنية على كتابه وسنته .

١ - وهي فكرة تقوم في تحليل توينبي على ثلاثة جذور ، وهي الإغراق في حب الذات من قبل هؤلاء الدارسين الغربيين ، ووهم القول بفكرة الشرق الراكدة ، ثم وهم الزعم بالتقدم كحركة تلتزم خطأ مستقيما على الدوام «أرنولد توينبي ، مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شبل ، ج ١ ص ٥٩ ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ص ٦٦ .

٢ - د. عنت الشرقاوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٣١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .

٣ - محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٧ .

«ولما كان أعداء الإسلام يريدون أن ينتقصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا إنكار أن يكون له مدنية خاصة به وزعموا أنه ما زاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل» ^(١) ، واستدلوا على ذلك بحالته الحاضرة وزعموا أن الشجرة تعرف من ثمارها ، متجاهلين بذلك اسهامات المدنية الاسلامية في دفع مسيرة العلم إلى الأمام ، وما قدمته إلى الإنسانية من انجازات .

وقد فند الأمير مزاعم أعداء الإسلام هؤلاء سواء كانوا من داخل العالم الإسلامي أو من خارجه وبين الهدف الذي يرمي إليه كل فريق منهما فقال :

«أما زعم من زعم أن الإسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يمويه بها أعداء الإسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية ، وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد» ^(٢) .

وينكر الأمير شكيب أن يكون الدين الإسلامي هو المسؤول عن تخلف المسلمين الديني والدنيوي في القرون الأخيرة ، «فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة ، بل من الجهل بالشريعة ، أوكان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي ، ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيماً عزيزاً . وأي عظمة أعظم مما كان الإسلام في أيام عمر بن الخطاب مثلاً» ^(٣) .

ويخلص شكيب إلى تأكيد علو المدنية التي أقامها الإسلام ، حقيقة لاجدال فيها : «ومدنية الإسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في أوروبا سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانجليز أو الطليان ... الخ ، إلا وعندهم تأليف لا تحصى في (مدنية الإسلام) فلو لم تكن للإسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ، ما كان علماء أوروبا حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الإسلام يكثرون من ذكر المدنية الإسلامية ، ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين

١ - شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ص ١١٢ .

٢/٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١١٩-١٢١ .

غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التي انفردت بها »^(١).

« فالمدينة الإسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاتها الخالدة بمآثرها الباهرة »^(٢).

ويمضي شكيب في ضرب الأمثال على (مدينة الإسلام) بذكر العواصم الإسلامية وحواضر بلاد الإسلام في آسيا وأفريقيا والأندلس في عصور الإسلام الزاهرة وما بها من آثار العمران ، وتناول البنيان ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان مما يؤكد علو قيمة ثمنها وعظيم انجازها .

ثم يعلق شكيب على ذلك بقوله : « هذه لمحة دالة على مآثر (حضارة الإسلام) وغرر أيامه . وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبيدع لم يتسع ذلك الجلود الكثيرة المرسوفة طبقاً فوق طبق »^(٣).

ويحسن بنا أن نتوقف قليلاً أمام المصطلح الذي استخدمه شكيب أرسلان أعني (مدينة الإسلام) أو (حضارة الإسلام) ، فشكيب يستخدم كلمتي (الحضارة) و (المدينة) بمعنى واحد ففي كتابه (لماذا تأخر المسلمون) الذي نقلنا عنه الفقرات السابقة يضع عنوان هذا المبحث (مدينة الإسلام) بينما ينقل عنه في حواشيه على (حاضر العالم الإسلامي) تحت عنوان (الحضارة الإسلامية ورفقي العرب الفكري في العصور الوسطى) ويكرر في داخل المتن كلمة (الحضارة) و (المدينة) للدلالة على الشيء نفسه .

ولقد ارتبط استخدام كلمة (حضارة) في العربية بدلالة مكانية تحمل في بعض مجالاتها الحركة المقصودة والخير ، كما في قولنا حسن المحضر ، إذا كان ممن يذكر الغائب بخير ، ويقال رجل حضر ، إذا حضر بخير^(٤).

« أما في العصر الحديث فقد أطلق عدد كبير من الباحثين كلمة الحضارة على كل

١ - ٣/٢/٨ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١١٩-١٢١ .

٤ - مادة (حضر) في (لسان العرب) .

ما يتصل بالتقدم والرقي الإنساني في المجالات المختلفة كاللغة والأدب والفنون الجميلة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني الذي يؤدي إلى التقدم والرقي ويبسر السبيل إلى حياة إنسانية كريمة »^(١).

« أما فيما يتعلق بكلمة «مدنية» فيميل كثير من الباحثين إلى استخدامها مرادفة لكلمة «الحضارة» فإنها تشير في اللغة أيضا إلى ارتباط مكاني »^(٢).

جاء في لسان العرب : مدن بالمكان أقام به .

«ومثلا يفعل الباحثون العرب في كثير من الأحيان فيستخدمون كلمتي (الحضارة والمدنية) مترادفتين ، يميل كثير من الباحثين الغربيين الى استخدام كلمتي : (Civilisation, Culture) بمعنى واحد ، ومن الباحثين الغربيين من يفرق بينهما فيرى أن : «الحضارة هي ما نحن ، وأما المدنية فهي ما نستعمل» ، وبعبارة أخرى فإن الحضارة في رأيهم في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات ، بينما تمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا »^(٣).

أما الجزء الثاني من (المصطلح) أو التعريف ، وأعني بذلك كلمة (الإسلام) أو (الإسلامية) التي يصر (شكيب أرسلان) على وصف (المدنية) أو (الحضارة) بها فيميل كثير من الباحثين إلى تسمية هذه الحضارة (بالحضارة العربية) على أساس دور العرب واللغة العربية فيها^(٤).

وشكيب أرسلان لا ينكر دور العرب السياسي والثقافي في تأسيس هذه الحضارة ، كما أن أحدا لا يماري فيما قدمته اللغة العربية بوصفها لسان الثقافة والعلم والمعرفة في العصور الوسطى لشعوب العالم ، ولكنه كان يرى : أن أسباب الإرتقاء كلها كانت

١ - د. عفت الشراوي ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ١٤ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٥ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٦ ، يقول ابن خلدون : «إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، ومزودة لفساده» ، وهكذا يستخدم ابن خلدون كلمة (الحضارة) للدلالة على صفة معينة من حياة المدنية .

٤ - كما فعل جوستاف لوبون الذي سمي كتابه (حضارة العرب) ، وكما فعلت يفريد هونكة التي سميت كتابها : (شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربية في أوروبا) .

عائدة بمجملها إلى الديانة الإسلامية^(١).

«فالعرب لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً واسعاً إلا بالإسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنّع لهم الممالك العظام والقيصرة والأكاسرة وتتحدث بصولتهم الناس ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلهم في الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم^(٢)».

أضف إلى ذلك أن سكان الجزيرة العرب الذين اعتنقوا الإسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين أسهموا في بناء (الحضارة الإسلامية) ، بل أسهم فيها من غير العرب كثيرون من الفرس والأتراك والأسبان والأرمن والمغول وغيرهم ، «كشأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً»^(٣) ، ولكن يبقى أن وصف (شكيب أرسلان) لهذه الحضارة بالإسلامية هو الوصف الأرجح باعتبار أن الإسلام هو دين الغالبية في هذه الحضارة ، وأن الشريعة الإسلامية كانت الرابط الموحد لشعوب الدولة الإسلامية في ثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوروبا طوال العصور الوسطى ، وأن هذه الحضارة قد استمدت من الإسلام العناصر الفعالة في إقرار الإنسجام بين التقاليد الثقافية المختلفة ، ومن هذه العناصر شعيرة الحج ، وهو لقاء على مستوى عام بين المسلمين ، يقرب بينهم ويؤلف بين قلوبهم ، ثم اللغة العلمية المشتركة ، وهي اللغة العربية التي كانت لغة الثقافة والمعرفة في كل مكان من العالم الإسلامي .

وقد حاول بعض حساد الإسلام والمكابرون في عظمة فضله من مؤرخي الأفرنج أن يصغروا من شأن (مدنية الإسلام) ، وأن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم ، فقالوا :

إن المسلمين لم يزدوا على أن قلدوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب^(٤).

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ٤١ .

٢ - المرجع نفسه ص ٤٢ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٢٤ .

٤ - المرجع نفسه ص ١٢٢ .

وقد تصدى (شكيب أرسلان) للرد على أصحاب هذه المزاعم مستشعرا خطرها فيما لو انتشرت بين شباب المسلمين ، فذكر أن موقفهم مع ما ينطوي عليه من التعصب غير العلمي والتحامل على الإسلام مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا إليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشره ونقلوه ^(١) ، كما بين أن كل المدنيات تشترك وتتمازج ولا يقدح ذلك في تميز كل منها .

وينطلق شكيب أرسلان في تصديه لأعداء (المدنية الإسلامية) من مقدمة أولى يراها يقينية وثابتة وفحواها : أن (مدنية الإسلام) لم تكن نسخاً ولا نقلاً ، وإنما هي قد نبعت من (القرآن) وتفجرت من (عقيدة التوحيد) ^(٢) .

«إن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواحي الأمم» ^(٣) .

«فكل ما يقال أن سبب الفتوحات الإسلامية هو مراس العرب للقتال أو حب البدو للغزو وغرامهم بالغنائم أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها فهذا تضيع للمعنى الحقيقي وزيف عن شائكة الرمية ، وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، ونقوة معنوية أحدثها في النفوس خارقة للعادة ، ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالتهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتتحو البلدان إلا بعد بعثة محمد ^(٤) ؟» ^(٥) .

وهكذا نجد الأمير شكيب حاسماً في تحديد سبب ارتقاء المسلمين ورده إلى الديانة الإسلامية ، وإلى الإيمان العميق بالعقيدة الداعية إلى الوحدة لا إلى الإنقسام والفرقة ، والثائرة على الجهل والجاهلية في سبيل المدنية ، والمناهضة للظلم والقسوة

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢٢ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٣ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ٢ ص ٢٨ .

٤ - صلى الله عليه وسلم .

٥ - المرجع السابق .

وصولا إلى الرحمة ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الواحد الأحد ^(١).

«وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة ، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف الكرة الأرضية في نصف قرن ... فالقرآن قد أنشأ إذا العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون من الأرض بطولها وعرضها» ^(٢).

من هذا المنطلق يؤكد شكيب أرسلان أن (مدنية الإسلام) استمدت عناصرها من مبادئ الإسلام الأولى ، ولا يقدر في أصالتها أنها أخذت عن غيرها من المعارف والعلوم والنظم التي لا تتعارض مع مقاصدها وقناعاتها الكلية ، ولم يتوقف جهد المسلمين على النقل أو التقليد بل هضموا كل هذا الزاد ، وصهروه في بوتقة عقيدتهم ومبادئهم ومثلهم ، «وكيفوا كل هذا التراث تكييفاً فيه التنظيم والتقويم ، وفيه التعديل والتحليل ، وفيه الزيادة والريادة ، وفيه الأصالة والجلالة» ^(٣) يقول شكيب :

«أما ما ترجمته (حضارة الإسلام) من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، أخذتها عن غيرها فلا يقدر ذلك في بكارتها الإسلامية ، ومسحتها العربية ، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بآجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً» ^(٤).

أما الإدعاء بأن الشرق وأن المدنية الشرقية كانت مزدهرة قبل ظهور الإسلام ، راتعة في بحابح العمران ، فجاء الإسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ، فهذا إدعاء باطل - في رأي شكيب - فالغرب كان غلب على الشرق قبل الإسلام ^(٥) ، والمدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الإسلام بكثير ^(٦).

٢/١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون (مرجع سابق) ص ٤١ .

٣ - أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروة والإسلام ، ص ٢٠٥ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ، (مرجع سابق) ص ١٢٣-١٢٤ .

٥ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٦ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

ولا يقدر مكابر أن ينكر دور الإسلام العظيم في الدنيا ، فالإسلام وحده لا غيره « هو الذي جدد مدنية الشرق الدارسة ، ويعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخاري ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، فإن كانت قد بقيت للشرق آثار (مدنيات قديمة) فإن الإسلام هو الذي وطد بوانيتها»^(١).

«وأضفى عليها لباس الإسلام الخاص ، ودبجها بدباجة القرآن التي لم تفارقها في شرق ولا غرب»^(٢) ، والإسلام هو الذي «حمل السيف بيد والقلم بيد إلى أبعد ما تصوره العقل من حدود الأقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه»^(٣).

ولم يتوقف دور الإسلام على الفتوحات المادية بل كان له دور عظيم في الفتوحات الروحية أو العقلية ، فأهم ما يميز (المدنية الإسلامية) أنها تعمل على بناء شخصية حضارية متوازنة تسير في نفس الإنسان جانبها الغيبي والحسي ، وذلك لأنها تتخذ موقفاً وسطاً فتعرف للروح قدرها ومكانها وللمادة قيمتها ووزنها ، فتقضي حق الدنيا كما تعلو كلمة الدين «فلا هي تذهب مذهب الحضارة البوذية - على سبيل المثال - التي تنكر عالم الحس ، وتبالغ في انكاره ، وتبشر بأن حياة الإنسان محنة في واقع الأمر ينبغي احتمالها والصبر على مكارهها وأن الخير كل الخير في اجتناب خديعتها وشهواتها (*) ولا هي تذهب مذهب العبرية القديمة ذات النزعة العملية التي تربط بين المفهوم الروحي للخير والشر وبين ملابسات الواقع والمصير الاجتماعي ، وتقيم فلسفة الجزء والشواب والعقاب على أساس جماعي مرتبط بمصير الجماعة في هذه الحياة الحاضرة»^(٤) ولا هي تذهب مذهب المدنية الغربية المعاصرة ، وهي مدنية تقدس المادة ، وتكاد تعبد الشهوة ، وتستخف بالقيم ، وتستهن بالمثل والمبادئ .

١ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

٢ - المرجع نفسه ص ١٢٣ .

٣ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

* ومثلها النصرانية لأنها ديانة مبنية على الزهد والمبالغة فيه ، والخضوع لكل حكم ديني ، والعمران لا يتم ولا يسو إلا بالسيادة والملك والقنى ، ومن قواعد الإنجيل أن الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة فالغني لا يدخل ملكوت السموات .. (رشيد رضا) هامش لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢٧ .

٤ - د. عفت الشقاري ، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨-٢٩ .

ولهذا التوافق في (المدنية الإسلامية) بين النشاط الروحي والنشاط العملي في الحياة أصبحت رؤية الإنسان للوجود رؤية متفائلة مقبلة على الحياة ، مبدعة خلاقة « ترى في عمران الأرض ، واجبا دينياً مقدساً ، وهذا هو المزاج الفلسفي المتميز الذي طبع الحضارة الإسلامية في أقاليمها المختلفة بطابع واحد بحيث يجوز لنا أن نقول في النهاية : نعم لقد ظلت (حضارة) واحدة رغم كل ما تضمنته من تنوع إقليمي »^(١).

ولهذه (المدنية) كان يدعو شكيب أرسلان ، ويجتهد في إبراز قدرتها على الجمع بين الدين والدنيا ، فعلى الرغم أن أساسها وأصلها يرجع إلى القرآن والتوحيد إلا أنها سبقت وأبدعت في علوم المعادن والنباتات والحيوان .

«وكانوا - العرب - يعتمدون في العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوبية المنتطعين الذين لا يفتأون يقولون إن العرب كانوا يعتمدون في علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة»^(٢) ، «وقد تلقى عنهم الغرب علوماً ومعارف كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرفه في ذلك الوقت»^(٣) ، إلى جانب التفوق الشرقي المستمر في العلوم الأدبية والعقلية ، يقول شكيب : «إن الغربي وإن بذل الشرقي في العلوم المادية فلم يبذه في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرون في العلوم الأدبية أو العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرون بأن الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنية»^(٤).

ولكن ليس معنى هذا أن تغلق الحكمة الشرقية والمبادئ الإسلامية بابها أبداً في وجه العلوم العصرية ، بل لها وعليها أن تأخذ من هذه العلوم ما يقويها ويعليها ، فمن أقدس قواعد الإسلام - كما يقول شكيب - هذا الحديث الشريف : «الحكمة ضالة

١ - المرجع السابق .

٢ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١١٧ .

٣ - المرجع السابق .

٤ - شكيب أرسلان ، مقدمة كتاب في النقد التحليلي ، ص (هـ) .

المؤمن ينشدها ولو في الصين» (١).

وستطيع المسلمون اليوم أن يستفيدوا من العلوم الغربية فهم يستردون في حاضرم بعض ما قدموه إلى البشرية في ماضيها «فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي : أن العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيد الأوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه» (٢).

ولا تستطيع أمة أن تزعم أنها انفردت بخلق العلم وإبداعه من البداية للنهاية ، «ولا يجب القول عن العلوم العصرية بأنها علوم غربية ، بل هي علوم لا شرقية ولا غربية ، وهي علوم بشرية امتلأت حياضها من قطرات قرائع البشر منذ تأسست الحضارة ، وصادف العصر الحالي تألق أنوار العرفان السابقة ازدهار مصابيح العلم في الشرق ، مما نبئنا بعظمته الأخبار والآثار» (٣).

وبناء على ذلك فلا حرج أن يدرس المسلمون اليوم العلوم وأن يدرسها من غير أن يخضعوا خضوعا (يسترقهم) للإلتجاء العقلي في الغرب ، فما يحتاجه العالم الإسلامي ليس استشرافا فلسفيا جديدا ولكن تجهيز علمي فني عصري ، وبهذا يستعيد المسلمون الديون العقلية التي اقترضتها أوروبا من (المدنية الإسلامية) على يد مترجمي (ظليظة) (٤) في العصور الوسطى ، «والحقيقة أن هذه الملكة العلمية وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماءها من ذلك الوقت تقريرا صريحا المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم إلى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة إلا بعد ثبوته بالتجربة ، إذن منذ القرن

١ - هذا مضمون حديثين أحدهما : «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، والثاني «اطلبوا العلم ولو بالصين» رواه العقيلي ص ٤ وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس ،

آرشيذ رضا) هامش لماذا تأخر المسلمون

٢ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟

٣ - شكيب أرسلان ، الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، ص ١٢٥ .

٤ - ترجم شكيب أرسلان محاضرة ألقاها الجراح الفرنسي (فورغ) عن مجلة المستشفيات الفرنسية عدد ١٩ مارس ١٩٣٢م وقد جاء فيها : «كانت ظليظة قد عادت إلى الأسيان ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المذنبيتين الإسلامية والمسيحية .. ومركز للترجمة» (حاضر العالم الإسلامي - ج ١ ص ١٢٨ وما بعدها) .

الحادي عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة»^(١).

ونقل (شكيب أرسلان) عن الفيلسوف الألماني «هومبولد» Homboldt قوله : «إن العرب لم يقتصرُوا على حراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه بل أضافوا إليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة»^(٢).

وهكذا كان (شكيب أرسلان) يحتفى بما ينشره الباحثون الغربيون المنصفون في ترجمه ، وينقل عنهم في مقالاته وحواشيه وكتبه معتبراً ما حرره هؤلاء في حق (المدنية الإسلامية) شهادة تقدم لناشئة المسلمين المفتونين بكل ما ينقل عن الغرب وردا على أعداء (المدنية الإسلامية) المكابرين في الشرق والغرب^(٣).

كما كان لا يهدأ ولا يسكت إذا رأى من ينتقد هذه المدنية أو يفترى عليها ، مثل رده الشديد على (المسيوسان) (المقيم الأفرنسي السامي) في المغرب الذي نشر في (مجلة الأحياء) الأفرنسية مقالة يتكلم فيها عن بقطة المغرب بعد (ليل الإسلام) ! هكذا تعبيره .

فأثارت كلمته شكيب فكتب يقول : «فإن كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الإسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت أوروبا المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية»^(٤).

ويقصد شكيب أن الأمم الأوروبية تنصرت «في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمة في شرقي أوروبا إلى القرن العاشر حتى

١ - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ١٣٥ .

٢ - المرجع السابق .

٣ - مثل نقله عن المستشرق الألماني المحقق (ماكس مايرخوف) بعض ماكتبه في كتابه (العالم الإسلامي) في حواشيه على (حاضر العالم الإسلامي) وترجمة خلاصة رأي الفيلسوف الإنجليزي (ولز) في حضارة العرب عن كتاب (تجربة في التاريخ العام) ، وترجمة كتاب العلامة (دراير) الأمريكي (في تاريخ الحركة الفكرية العلمية في العالم) ، مثل اهتمامه بقول نابليون بونابرت : (إن العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لاغير) لشدة دهشته من تاريخ الإسلام ، ونشره - شكيب - في رسالته : لماذا تأخر المسلمون ؟ ص ١٢٤ .

٤ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ ص ١٣٢ .

تنصرت ولم تنهض أوروبا نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجيا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعمئة سنة أي من بعد أن دانت بالإنجيل بألف سنة» .

وشكيب يرى أن (النصرانية) نفسها لم تكن هي المسؤولة عن تخلف أوروبا مدة ألف سنة في القرون الوسطى ، بل كان للمسيحية (الفضل في تهذيب برايرة أوروبا) ، وكذلك البرودية والثنية لم يكونا سببا تخلف (اليابان) السابق ولا نهضتها الحالية ، وإنما للتأخر والتقدم أسبابا وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الإلحاد والإباحة ، من هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة إليها أسباب خارجية مثل غارات أعداء وغيرها ، فإذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرها ، كما أصبحت معائب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها ^(١) .

ومن أكبر أمثلة التاريخ الشاهدة على صدق هذا سقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ، وسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس إلى النصرانية ، فهل يقدر أحد أن يقول : إن الوثنية أصلح للعمران من النصرانية ؟ ^(٢) .

فإذا كان الدين لا يصح أن يجعل معياراً لتأخر أو تقدم هذه الأمم فإن هذا لا ينطبق على الإسلام ، فالقرآن والتاريخ يشبان أن (الإسلام) هو سبب تقدم أهله حين أهتموا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخيرهم ، يقول الأمير شكيب :

« فإذا كان الأفرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد دمروا ما بني الإسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت مناقسات ملوك الإسلام الداخلية للشهوات وامعائهم في الضلالات ، ومحيدهم

١ - شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ (مرجع سابق) من ص ١٢٣-١٣٢ .

٢ - المرجع السابق ص ١٢٧ .

عن جادة القرآن القويمة ، وفقدتهم ما يزرعه في الصدور من الأخلاق العظيمة ، وقد قضت في الداخل ، على ما عجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذي في هذا التقلص ذنب الإسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الأفرنج ، وجناية ذلك الجراد الزاحف من الغول ، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمنا قليلا ، إلا النادر منهم»^(١).

وهكذا ينتهي الأمير شكيب أرسلان إلى الطريق الذي ينبغي أن يسلكه المسلمون لتنمو (المدنية الإسلامية) نموا جديدا عظيما ، مملوءا بالثقة بالنفس ، فما من مدينة تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الحياة بعد أن تخسر إعجابها بنفسها ، وصلتها بماضيها ، فإذا أراد المسلمون أن يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي فلن يجدوه إلا في العودة لإسلامهم ، فالإسلام هو الذي بعث الأمة العربية في التاريخ وهو قادر على أن يبعثها من جديد ، أما الخطر الحقيقي الذي يمكن أن يهدم الإسلام ويقطع صلة المسلمين بماضيهم ويفقدتهم مركزهم الروحي والثقافي والسياسي فهو اتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عنه اختلافا جوهريا في أسسها الأخلاقية .

«أما الإسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما أجمع على الإعراف به المؤرخون شرقا وغربا ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفكرون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الأوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام ويسط سيادة أوروية على بلدانهم بل كان السبب في تردي المسلمين هو أنهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الاسم والحال أن الإسلام اسم وفعل»^(٢).

١ - المرجع نفسه ص ١٢٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٣٢ .

الخاتمة

لعل النتيجة التي يخرج بها الباحث في آراء الأمير شكيب أنه أمام مفكر إسلامي عظيم ، وقف حياته للدفاع عن كل ما يمت إلى العرب والمسلمين بصلة ، إننا أمام حياة مقدرة لعمل مسمى ، يوشك كل جزء من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التي اتجه إليها ، فقد عاش شكيب نصف عمره منفياً وعاش عمره كله مجاهداً مناضلاً في سبيل ما اعتقده صحيحاً وحقاً مشروعاً .

فنشأته منذ صباه على تربية عالية ، وحياته في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، عصر النهضة القومية والمطامع الدولية ، والصراع في ميادين العلم والسياسة والدين ، بين الغرب المستعد بأهبطته والشرق الذي تتنازع التيارات المختلفة والآراء المتباينة .

وأسترته التي مكنته من الإتصال بكبار العاملين في حقل الأدب واللغة والسياسة ، وما أتيج له من الإجتماع بالزعماء المصلحين وإكبارهم لإتجاهاته الإسلامية في الإصلاح والسعي لخدمة الإسلام .

كل ذلك جعل حياة شكيب أرسلان أشبه ما تكون بحياة المناضلين الأوائل أصحاب العقيدة والقلم ، وتمت حياة الرجل ولم تتم رسالته في خدمة قومه وعقيدته .

وحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإنصافاً لمقصده أن يسبق الزمن وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدي إليه شمس النهار ، وهذا ما يميز فكر الأمير شكيب أرسلان ويشهد بتفوقه واستحقاقه للإستمرارية والبقاء ليس بمقياس عصره فقط ، بل بمقياس الزمن الذي نعيشه اليوم ، فهو من دعاة النهضة والتقدم وليس من أنصار الجمود والجمود ، وطبيعي أن عوامل النهضة والرقى لم تتوقف بوفاته .

ولنا أن نشبت هنا أن صاحب هذا الفهم العميق للإسلام كعقيدة وشرعة ، وهو الذي شغل نفسه بهموم المسلمين ودافع عن قضاياهم ووحدتهم طوال حياته ، لا يمكن أن

يكون منتمياً بفكره إلى طائفة تتخذ من الجهل شرعة ومنهاجاً ، ومن الإنحراف عن الإسلام وجوهره الصافي ، والبعد عن المسلمين ديناً .

وأخيراً .. نرجوا أن نكون قد وفقنا في إثبات أن الأمير شكيب أرسلان الذي ناضل بعقله وقلمه طوال أربعين عاماً في سائر العالم الإسلامي ، تجاوز مسألة الإستعمار والاستقلال إلى طرح آراء كلامية وفلسفية تمثل منهجاً إصلاحياً شاملاً في مجالات الدين والسياسة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين !!

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن تيمية - أحمد
- ١- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الرياض - ١٣٨١هـ
- ٢- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، القاهرة ١٩٥١ م
- ابن خلدون
- ٣- تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١ م
- ابن كثير
- ٤- تفسير القرآن العظيم ، دار الشعب ، القاهرة
- ٥- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧٧م
- أبو الحسن الماوردي
- ٦- الأحكام السلطانية ، طبعة ١٣٢٧هـ ، ١٩٠٩م ،
- أبو الحسن الندوي
- ٧- ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ، دار القلم ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٣م ، الكويت
- ٨- انصراف بين العصرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، دار القلم ، ١٩٨٣م
- إحسان إلهي ظهير
- ٩- الشيعة والشيعة فرق وتاريخ ، باكستان ، ١٩٨٤م
- أحمد بن حنبل
- ١٠- الرد على الإجماعية والزندقة ، تحقيق عبد الرحمن عميرة ، دار اللواء ، الرياض ، ١٩٨٢م
- ١١- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ١٩٦٥م
- أحمد سمائلوفتش
- ١٢- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، (رسالة دكتوراه ٩ / ٩ / ١٩٧٤ م بالزهر) ، دار المعارف بمصر
- أحمد الشرباصي (الشيخ)
- ١٣- أدب أمير البيان ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، القاهرة
- ١٤- أمير البيان شبيب أرسلان ، مطابع الكتاب العربي ، مصر ١٩٦٣م ، الطبعة الأولى
- ١٥- شبيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣ م
- أرنولد توينبي
- ١٦- مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد شبل ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦م
- البرت حورانبي
- ١٧- الفكر العربي في عصر النهضة (ترجمة عزقول) الطبعة الثالثة ، دار النهار بيروت ١٩٧٧م
- أنور الجندبي
- ١٨- محاولة لبناء فقه إسلامي متكامل ، المجلد الخامس ، دار الأنصار بمصر ،
- البخاري
- ١٩- صحيح البخاري ط ١٢١٥ هـ - ١٨٩٧م.
- البلاذري
- ٢٠- فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، القاهرة
- جمال الدين الأفغاني
- ٢٠- الرد على الدهريين ، السلام العالمية للطبع والنشر ، مصر ، ١٩٨٣ م
- ٢١- العروة الوثقى ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ط ٣ ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م
- ٢٢- خاطرات جمال الدين الأفغاني ، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠ م

٢٣- المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧١م

- د. حسن الشافعي

٢٤- لمحات من الفكر الكلامي ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٩٣م

- د. سامي الدهان

٢٥- محاضرات عن الأمير شبيب أرسلان ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ م

٢٦- الأمير شبيب أرسلان حياته وآثاره ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٦ م

- سامي مكارم

٢٧- أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية) دار صادر ، بيروت ١٩٦٦م

-شبيب أرسلان

٢٨- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت

٢٩- روض الشقيق في الجدل الرقيق ، وهو ديوان أخيه الأمير نسيب حقه وقدم له الأمير شبيب ، دمشق

١٩٣٥م

٣٠- تاريخ ابن خلدون ، تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، تعليق شبيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية بمصر ،

١٩٣٦ م

٣١- حاضر العالم الإسلامي - تأليف ستودارد الأرميكي ، وترجمة عجاج نويهض ، وتعليقات الأمير شبيب ،

في أربعة أجزاء ، دار الفكر بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م (الطبعة الرابعة)

٣٢- تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، دار الكتب العلمية بيروت

٣٣- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي - تأليف محمد أحمد العمراوي ، القاهرة ١٣٤٧هـ -

١٩٢٩م (مقدمه شبيب في ٥٦ صفحة)

٣٤- الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف - تأليف الأمير شبيب أرسلان ، مطبعة المنار بمصر

١٣٥٠ - ١٩٣١م

٣٥- السيد رشيد رضا أو إزاء أربعين سنة - تأليف شبيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، ١٣٥٦هـ -

١٩٣٧م

٣٦- شوقي أو صداقة أربعين سنة - مطبعة عيسى الحلبي بمصر ١٩٣٣م

٣٧- الجدل السندية في الأخبار والآثار الأندلسية - تأليف الأمير شبيب أرسلان ، المطبعة الرحمانية بمصر

١٩٣٩م

- الشهرستاني

٣٨- الملل والنحل (المطبوع على هامش الفصل في الملل) دار المعرفة بيروت

- صالح بن عبد الله العبود

٣٩- فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام - دار طيبة بالرياض ، ١٤٠١هـ

- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)

٤٠- تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار المعارف ١٩٦٢ م

٤١- جامع البيان في تفسير القرآن

-عباس محمود العقاد

٤٢- الإنسان في القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩م

٤٣- التفكير فريضة إسلامية ، دار نهضة مصر ، القاهرة

٤٤- عبد الرحمن الكواكبي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٦م

٤٥- أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م

٤٦- عبقريات الإمام علي (سلسلة العبقريات)

- عبد الله الزمين

٤٧- دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة ، دار الحقيقة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م

- عبد الله النجار

٤٨- مذهب اندروز والنوحيد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م

- عبد القادر شيبه أحمد

٤٩- الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة ، مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- د. عبد المنعم النمر
٥٠- الشيعة .. المهدي .. الدور ، تاريخ ووثائق ، كتاب الحرية ، القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
- عبد الوهاب خلاف
٥١- خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي ، دار القلم ، الكويت
- عز الدين الأمين
٥٢- نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة
- د. عفت الشرقاوي
٥٣- في فلسفة الحضارة الإسلامية - دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م
- الغزالي (أبو حامد)
٥٤- فضائح الباطنية ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م
- ٥٥- المنقذ من الضلال ، ط ١٣٧٥ ، ١٩٥٥م
- ٥٦- الاقتصاد في الاعتقاد ، ط ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م
- د. فهمي جدعان
٥٧- أسس التقدم عند مفكر الإسلام في العصر الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت لبنان ١٩٨١م
- فلييب حتى
٥٨- لبنان في التاريخ ، ترجمة د. أنيس فريحة ، دار الثقافة - بيروت ، ١٩٥٩ م
- فيس الفرطاس
٥٩- نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيهما . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م
- كريم ثابت
٦٠- الدور والثورة السورية وسيرة سلطان باشا الأطرش
- لوتسكي
٦١- تاريخ الأقطار العربية الحديث ، (ترجمة بستاني) مؤسسة نوفل ، بيروت ١٩٧٩م
- محمد أحمد الخطيب
٦٢- عقيدة الدور عرض ونقد ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، ط ١ ، ١٩٨٠م
- ٦٣- الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، مكتبة الأقصى ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- محمد أحمد الغمراوي
٦٤- النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م
- محمد أسد
٦٥- الإسلام على مفترق الطرق ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨م
- د. محمد البهي
٦٦- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ، ط ٩ ، ١٩٨١م
- محمد الخير عبد القادر
٦٧- حبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية ، مكتبة وهبة ط ١ ، ١٩٨٥م
- د. محمد السيد الجليل
٦٨- قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي . مطبعة الحلبي ، ط ٢ ، ١٩٨١م
- ٦٩- أصول أهل السنة والجماعة ، للإمام أبي الحسن الأشعري ، تحقيق د. محمد السيد الجليل . ١٩٨٧م
- محمد العزاوي
٧٠- عرقه النزارية . تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ، الهيئة العامة للكتاب / جامعة عين شمس ، القاهرة
- محمد رشيد رضا
٧١- تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده . مطبعة المنار بمصر ، ١٣٤٤هـ
- ٧٢- الخلافات الإمامية العظمى ، مطبعة المنار ، ١٤٣١هـ - ١٩٢٢م
- ٧٣- عاوي الإمام محمد رشيد رضا ، تحقيق د. صلاح الدين المهجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٧م

- د. محمد شفيق شيا

٧٤- شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي ، سلسلة غير دورية تصدر عن مجلة الفكر العربي ، طب الأولى ١٩٨٣م

- د. محمد ضياء الدين الرئيس

٧٥- النظريات السياسية الإسلامية ، ط ١٣٧١هـ - ١٩٥٠م

- محمد عبد الله عنان

٧٦- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، دار النشر الحديث / القاهرة ١٩٣٧م

- محمد عبده

٧٧- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٣٦٧هـ

- محمد علي الطاهر

٧٨- ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى الحلبي بمصر ، طب ١ ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

- د. محمد فتحي عثمان

٧٩- عن أصول الفكر السياسي الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طب ١ ، ١٩٧٩م

- محمد قطب

٨٠- شبهات حول الإسلام ، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

- د. محمد محمد حسين

٨١- الاتجاهات النوطية في الأدب المعاصر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٨٢- الإسلام والحضارة العربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٨٣- أزمة العصر ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، جدة ، ١٩٧٩م

- د. محمد حمدي زقزوق

٨٤- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، كتاب الأمة ، طب ١ ، ١٤٠٤هـ

- د. محمود قاسم

٨٥- جمال الدين الأفغاني ، حياته وفلسفته ، مكتبة الأنجلو المصرية

٨٦- المنطق الحديث ومناهج البحث ، دار المعارف بمصر ، طب ٥ ، ١٩٦٨م

- محمود المرادوي

٨٧- الخلافة بين التنظير والتطبيق ، دراسات في الفقه السياسي ، طب ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- د. مصطفى حلمي

٨٨- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ، دار الأنصار ، ١٩٧٧م

٨٩- منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين ، دار الدعوة ، ١٩٨٢م

٩٠- الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م

٩١- الإسلام والأديان دراسة ومقارنة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠

٩٢- الإسلام والمذاهب الفلسفية ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م

٩٣- محاضرات في علم أنحلام ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

- مصطفى صادق الرافعي

٩٤- تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- مصطفى صبري

٩٥- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،

الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م (أربعة مجلدات)

- د. مصطفى السباعي

٩٦- الاستشراق والمستشرقون ، ما لهم وما عليهم ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ -

١٩٧٩م

- د. مصطفى الشكعة

٩٧- إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

- موريس بوكاي

٩٨- القرآن والنوراة والإنجيل والعلم (الترجمة العربية) ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٧م

- د. ناصيف نصار

٩٩- تصورات الأمة المعاصرة ، برنامج كاتب وكتاب ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٩٨٦م

- نجيب الغبيقي

١٠٠- المشرقون ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨١م

الدوريات

١- الشباب :

مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، أصدرها محمد علي الطاهر بين سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٩م

٢- الشورى :

جريدة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محمد علي الطاهر ، بين سنة ١٩٢٤ - ١٩٣١م

٣- الفيتح :

مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة لصاحبها محب الدين الخطيب

٤- الفكر العربي :

مجلة الأزماء العربي للعلوم الإنسانية ، تصدر عن معهد الأزماء العربي في بيروت

٥- مجلة المجمع العلمي العربي :

مجلة شهرية ، يصدرها المجمع العلمي العربي بدمشق

٦- الهلال :

مجلة شهرية تصدر بالقاهرة ، لمؤسسها جورجى زيدان ، بدأت في الصدور سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م